١٢٦

روايات احلام

عاش لحظة

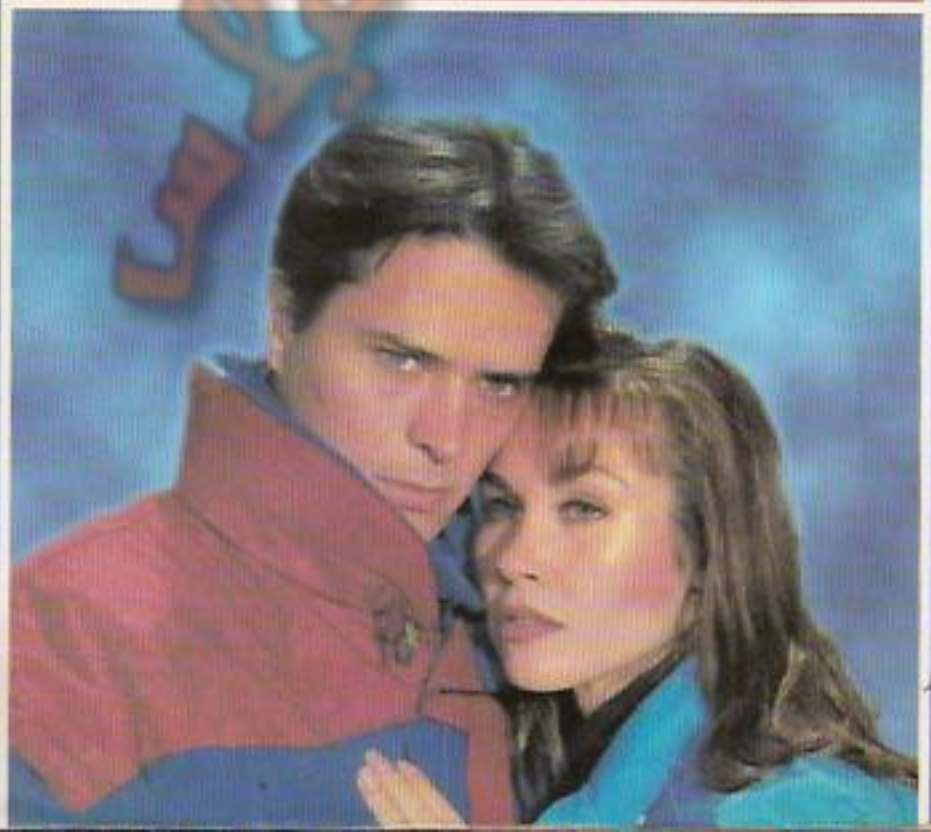

روايات احلام

عاش لحظة

... أطبقت الظلمة على عيني ويلهام غلايمور فأحس أنه ينظر إلى نفق طويل ثم اختفى كل شيء ولم يعد يرافقه إلا الظلام... هل هو الموت؟ لم تزعجه الفكرة، لم يشعر وهو الذي تحدى المخاطر وعبث مع الموت طوال حياته بالرغبة في الحياة... ولماذا ينجو؟ ومن أجل من؟

... وفجأة سمع صوتها يطوف حوله :

ـ اصمد! لا تستسلم!... أنا معك الآن... ستكون آمناً قريباً...

فتح عينيه ورآها... إنها غريبة وجميلة! من هي؟ ماذا تريد منه؟ لماذا لا تدعه لمصيره؟ لكن صوتها كان يشده ويدفعه، يعطيه القوة ليقاوم وليعود إلى الحياة رغماً عنه...

لبنان ٣٠٠٠ ل. ل	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل. س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١.٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ طيران نحو الموت

يا لها من طريقة للطيران!

ما من مجال للتساؤل حول الأمر.. فهذه أجمل طرق الطيران التي ابتدعها الإنسان.

آه.. تيار الريح يقوى.. وأقفل ويلهام غلايمور سحاب سترته الواقية من الريح، ونقل ثقله إلى اليسار، وشدّ ذراع المقود، فغيرت الطائرة الشراعية الخفيفة الوزن «إيغل ٦» اتجاهها على الفور. غير معقول! فلقد تجاوبت الطائرة المصغرة وكأن أجنحتها مجرد امتداد لذراعيه.. مد يده وأطفأ المحرك الصغير المثبت خلفه، فتحولت الطائرة ذات المحرك إلى طائرة شراعية.. وظلت أذناه تضجان بصوت المحرك للحظات، ثم صفتا، وأصبح كل ما يسمعه هو غناء الأوتار المشدودة في الهواء، وصوت قرقعة ناعمة من الأجنحة المغطاة بالقماش.

بينما كان يدير مقدمة الطائرة إلى الأسفل بحدّة ليحافظ على سرعتها، أخذ يتنعم بالإحساس بالارتفاع وكأنه طائر ضخم، أحس وكأنه يمتلك السماء والأرض معاً. ويا له من مكان للتحليق! وومضت عيناه الخضراوان الباردتان بسعادة وهو ينظر إلى الأسفل.. رائع، مهيب، سحري، خيالي.. كيف يمكن للمرء أن يصف التشكيل الصخري لجبال «تشيريكاهوا» الواقعة تحته على مسافة ألفي قدم؟

كان المنظر متعة لا مثيل لها مع معرفته أن لا أحد يمكنه التدخل

أو التطفل على عزلته.. وافترت شفتاه عن ابتسامة. إنه بعيد عن ممرات الطيران التقليدية، دون راديو، ولا مراقبة أرضية تصيح به وتقول له ما الذي يمكنه أو لا يمكنه أن يفعله.. فلو أنهم يعرفون فقط أين هو أو كان لهم سبيل للاتصال به فسيكون هناك مسؤول عن الحركة الجوية يصيح الآن من وراء مكتبه، ويأمره أن يعود، لأن الطيران في المجال الجوي لمحمية جبال شيريكاهوا الوطنية هو أمر غير قانوني.

لا شك أنه دخل مجال الجبال الآن.. فالمناظر الريفية من تحته تحولت بسرعة إلى متاهة من الوديان العميقة الحادة، كما أن هناك الصخور العمودية، وآلاف الأعمدة الصخرية الغريبة الارتفاع، التي حولتها عوامل الطبيعة إلى أرض مخيفة لا وجود لها إلا في الخيال، ولا يشبهها شيء في العالم.

أحس بسرعته تنخفض.. لا بدّ أن تيار الريح انخفض.. فأبعد عينيه عن المنظر الأرضي وأدار المحرك. ولم يكن لديه أية رغبة في العودة. مع أنه كان في وضع تسلل غير قانوني.. لا.. فهو يحسّ هنا في مثل هذا الارتفاع برهبة السكون.. وهذا شيء لم يحس به منذ زمن بعيد.. إضافة إلى ذلك فهو يريد أن يلقي نظرة عن قرب على تلك الأكوام المذهلة من الصخور.

عدّل من ثقله مرة أخرى ودفع بذراع المقود ورفع طائرته الفائقة الخفة لتلتقط السرعة، ثم أدارها بقدر استطاعته بسرعة وقسوة في زاوية حادة.. وبدأ يستند إلى الخلف ليتمتع بطيرانه الكسول إلى الأسفل، عندما اهتزت الطائرة الصغيرة دون سابق إنذار وانهارت، فانقلبت بعنف على ظهرها.. وذهل ويلهام للمفاجأة وغشي بصره، وفقد توازنه، وقد انقلب رأساً على عقب.. توقفت الطائرة «إيغل ٦» للحظة، مسمرة كصورة أمام السماء الفيروزية، ثم هبطت

كالحجر نحو الأرض.

ما إن التقط أنفاسه حتى شد ويلهام أصابعه على ذراع المقود.. فالخلاص من الهبوط العمودي لعبة أطفال بالنسبة إليه. ولقد كان يفعل هذا منذ أن تعلم الطيران وهو في السادسة عشرة. لذلك شد المقدمة إلى فوق بنعومة.. لكن الطائرة الخفيفة أكملت الهبوط بجنون، ثم انقلبت مجدداً! ما الذي يجري بحق الله؟

خرجت «إيغل ٦» مرة أخرى عن سيطرته لثوانٍ مجنونة، ثم عادت إلى هبوط عمودي صارخ. وهذه المرة كانت الأرض قريبة بشكل مخيف.

هذا الموقف كان يجب على الأقل أن يكون مخيفاً.. فأي شخص عادي كان سيصيبه الهلع. لكن ويلهام على العكس، كان شجاعاً بكل ما للكلمة من معنى.. فحتى وهو يفقد السيطرة كان يمعن في الابتعاد عن إعطاء الأمر الاهتمام وكأنما ما يحدث يحدث لشخص آخر.. يا إلهي.. أسئم حقاً من الحياة؟! حتى أنه أصبح على بعد لحظات من الموت، ولم يشعر بشيء أبداً؟.. لا.. هذا غير صحيح.. فهو يحس بشيء: يحس بالاستغراب بسبب تحدي هذا لكل مبادىء علم ديناميكية الهواء التي يعرفها.. وأخذ دماغه يفتش بين المعلومات التي يعرفها وكأنه الكومبيوتر الذي يبحث في مخزن المعلومات.

وحصل على ما يريد في بضع ثوانٍ بينما هو يراقب رماح الصخور المدببة التي لوحتها الشمس، والتي ترتفع نحوه.. بالتأكيد! لا بد أنه الثقل الجاذب.. أدار الطائرة بحدة فوصلت دون شك إلى زاويتها الحاسمة، بسرعة أكبر من الطائرات التي اعتاد عليها.. وهكذا انطلقت بسرعة أكبر من سرعة الجاذبية مما قلبها ملقية بها على ظهرها منحدرة نزولاً.. وبدلاً من أن يشدها إلى فوق،

كان يجب أن يخفض المقدمة ليمنع الانهيار.

فقام بالتجربة مدفوعاً بالفضول الفكري أكثر من المحافظة على الذات، ودفع ذراع المقود إلى الأسفل. ونجح فأبطأت الطائرة الخفيفة من سقوطها وبدأت تستقيم.. لكنها كانت متأخرة جداً.. بل أكثر تأخراً مما يمكن أن يكون لهذا أية فائدة أخرى.

وكان محقاً في تقديره.. وكأنه يراقب فيلماً سينمائياً ممتعاً، راقب الجناح الأيسر يصطدم بعمود ضخم وينفصل.. فترنحت «ايغل ٤٦» واستدارت بجنون فصدمت جداراً صخرياً ومن ثم آخر، وغاصت بأتجاه أرض الوادي الوعرة.

إذن هكذا ستكون النهاية.. حسن جداً.. ولمَ لا؟ لقد تحدى الموت مئات المرات.. وكان يدرك أنه سيخسر يوماً ما، لطالما عرف هذا.. لكنه كان غير قادر أن يستوعب أن يحدث هذا هنا، في هذه الزاوية التي لا مجال للوصول إليها من أريزونا، والتي لم يسمع بها أحد، وهو يجلس يعجز في ما يشبه المزحة من القماش والخشب الخفيف...

لقد صدم رأسه دون شك فهو يشعر بألم. لكن أفكاره تشتت فجأة، وتطايرت. وأطبقت الظلمة على أطراف نظره.. ولم يعد يرى بوضوح إلا أمامه وكأنه ينظر عبر نفق طويل.. ثم بدأ هذا النفق يتأرجح وكأنه نور شمعة في الهواء.. لكن هذا كان للحظة فقط، قبل أن تنطفىء الشمعة بصمت فلم يعد هناك سوى الظلام.

كان متجمداً من البرد ولا يستطيع فتح عينيه..

هل هو مشلول؟ أم ميت؟ لا.. لم يكن ميتاً فالصخور التي تقذفت في ظهره كانت تؤلمه بحيث لا يمكن أن يكون ميتاً.. حاول تحريك جسده فشهق بسبب ألم غير متوقع.. إلا أن عينيه على الأقل انفتحتا.. شيء ما فيه يعمل.

لكن ذلك لم يفده بشيء.. فقد كان الظلام دامساً.. بقي مستلقياً لفترة دون حراك.. يخاف أن يتحرك مجدداً.. فدماغه كان خالياً من كل إحساس ما عدا البرد.. ثم حرّك ذراعه اليسرى بحذر شديد فتألم قليلاً، لكنه عرف أنها غير مكسورة بل مكدومة فقط.. وجرب بحذر تحريك كل أطرافه، فاستجابت له ولو بضعف.. لكن الإحساس بالرمل المليء بالحصى عليه حيّره.. تُرى أين هو؟

كان هناك شيء ما يرفرف بضعف على وجهه.. فركز عينيه يحاول معرفته على ضوء النجوم الخافت. قميص؟ خرقة؟ أغمض عينيه متعباً للجهد، يا إلهي، ما هذا البرد؟

وتذكر على الفور.. لقد سقطت طائرته.. وبطريقة ما نجا، وبشكل سليم تقريباً.. فتح عينيه مجدداً.. ومد يده حتى يدفع عنه الجناح القماشي الذي يمنع عنه الرؤية، فابتعد بسهولة لخفته.. كانت النجوم التي تزين السماء متلألئة كالجواهر، باردة قاسية كالكريستال.. نابضة بالحياة تذكره بأن البرودة ستقضي عليه إذا لم يفعل شيئاً. فهل يمزّق القماش عن الجناح ويلف به نفسه؟ أو يشعل ناراً؟! لا بدّ أن يفعل شيئاً بدل أن يستلقي منتظراً الموت.. كل ما يلزمه هو شيء من الابتكار.

كان هناك الكثير من المشاكل.. لكنه لم يكن قادراً الآن إلا على التعامل مع اثنتين منهما. الأولى أن من الأمان أن ينام هنا بالرغم من البرد.. والثانية هو أنه إذا كان من الصحيح أن مفتاح خلاصه يكمن في ابتكاراته.. وفي شدة تمسكه بالحياة.. فهو إذن دون مفتاح.. النجاة لأجل ماذا؟ ولأجل من؟ لا عمل له ليعود إليه، ولا مهنة، ولا أحد يريده حقاً أو يحتاج إليه.. ألم يكن يعيث مع الموت لسنوات طويلة؟ ومؤخراً.. وليكن صادقاً.. ألم تصل همته إلى الفتور؟

كم سيكون الأمر أبسط وأسهل، لو بقي مستلقياً هنا..

بهدوء.. وسكينة.. وبترك الأمر يمضي.. تشاءب.. وأغمض عينيه، ودس نفسه في الرمل الناعم. ما الذي جعله يظن أنه لم يكن مرتاحاً.. وبارداً؟ في الواقع كان يحس بالرضى والدفء والهدوء والنعاس بشكل لذيذ..

* * *

- ويلهام.. ويلهام.. أصمد حيث أنت.. أنا معك الآن.. سأجعلك قريباً، آمناً.

صوتها كان منخفضاً، لكنه حازم.

- ويلهام.. اصغ إليّ.. أصمد قليلاً ويلهام.. كل شيء على ما يرام الآن.

بنصف وعي، قاوم صوتها.. إنها تجبره على الخروج من الراحة المظلمة حيث يطفو دونما جهد، ليعود إلى عالم الناس والبرد.

قالت وهي تميل فوقه، وتمسك يده، تمسح جبينه:

- سنخرجك في وقت لا يذكر.

كانت لمستها أقوى من أن يتجاهلها.. لطيفة، ناعمة، لذيذة.. وتمكن من الابتسام لنفسه.. لقد تلقى ضربة مؤلمة.. لكنه بعيد جداً عن الموت.

ببطء أصبح يعي أشياء أخرى.. صوت حطام الطائرة يُسحب بعيداً. صوت الراديو على الموجة القصيرة.. أصوات رجالية عميقة تقول أشياء لم يستطع فهمها.. شخص ما لف بطانية صوفية حوله، ووضعه على حمالة. وأخذ يتحدث إليه مرة أخرى.

- ويلهام؟ ويلهام؟ أتسمعني؟ أنا معك الآن.. ستكون آمناً بعد قليل.. كل ما عليك هو أن تصمد، لا تستسلم.. لا تستسلم..

احتار بسبب القلق في صوتها.. انها غريبة، واثق انها غريبة. أليست هكذا؟ قاوم ويلهام بما يكفي مندفعاً بفضول ليشق طريقه

وليخرج من الفراغ المظلم فاتحاً عينيه.. واستطاع أن يراها بوضوح على نور الأضواء الاصطناعية.. إنها جميلة.. عرف هذا من صوتها.. لم تكن متألقة الجمال بل كانت فتاة قريبة جداً من الجمال، نظيفة، منتعشة، ومنطلقة.. شعرها البني الفاتح مربوط في ذيل حصان يتدلى على أحد كتفيها، أحس به وهي تنحني فوقه يلامس جبهته وكأنه الحرير ناعم ومدغدغ.. أجل.. إنه حي.. بكل تأكيد!

نقل نظره من شعرها إلى وجهها.. كانت تبتسم له لكن بشفتيها فقط.. فلم تكن عيناها الزرقاوان تعكسان شيئاً سوى القلق عليه.. ولم يستطع أن يعرف لماذا.. إنه على حق.. لم يشاهدها من قبل.. لكنها أخذت تبدو أكثر إلفة مع كل لحظة تمر وعيناهما متشابكتان.

أغمض عينيه لأن النور أذاهما، وكذلك محاولات التفكير كانت صعبة عليه.

قالت وهي تشدّ على يده بصوت مهدىء:

- لا بأس عليك ويلهام.. استرخ.. لكن لا تستسلم. سأبقى معك فلا تقلق. سنخرجك من هنا في وَقت لا يذكر.

تمنى لو أن لديه القدرة ليشرح لها بأنه لا يريد الخروج.. ولا يريد شيئاً أبداً.. سوى أن يستلقي دون حراك، ويترك موسيقى صوتها الناعمة تطوف فوقه، لأن صوتها كان يشده، ويسحبه، ويدفعه، حتى إنه دون أن يقصد، وجد نفسه يصغي ويستجيب ويتقبل دون إرادته، وباندفاع غير مرغوب فيه، القوة التي تقدمها إليه.. تلك القوة الكافية ليقاوم..

* * *

أوقفت تالي سيارتها البويك الستايشن القديمة في مرآب

السيارات وأطفأت أنوارها. شكراً لله أنها وصلت المنزل دون أن تغفو وراء المقود. لولا ذلك «الغالون» من القهوة الذي استهلكته في المستشفى وهي تنتظر ردّ معدات الفريق، وتنتظر سماع أن الطيار سينجو. لكانت نامت في سيارتها في موقف السيارات في المستشفى. نظرت إلى ساعتها ذات الميناء الأخضر المضيء. لا عجب أن تكون متعبة! فالطائرة لم يتحدد مكانها قبل منتصف الليل، وبعد عشر ساعات من التفتيش المستمر. ثم استغرق استكمال مهمة الإنقاذ أربع ساعات أخرى عمل فيها سبعة عشر شخصاً بجدٍ من بينهم ثمانية رجال لإيصال الحمّالة إلى القعر الشديد الانحدار للوادي لكن الإنقاذ البري، وفي منطقة برّية، يحتاج إلى أكثر من عضلات، وخطوات واثقة.. فهو يحتاج إلى الحضور والصوت ولمسة الاهتمام بإنسان آخر قد تكون الفرق بين الحياة والموت.. ومهمة تالي خلال الساعات الأخيرة كانت كذلك، أرادت أن تكون تلك الإنسانة التي تبقى إلى جانب الضحية، وتُبقي رغبة الحياة فيه حية.

الضحية؟ من تحاول أن تخدع؟ فهي بعد خمس دقائق من ركوعها إلى جانبه عرفت أنه ويلهام ولم يعد بالنسبة إليها ذلك المجهول «الضحية». لفت ذراعيها حول المقود وألقت بثقل رأسها عليهما.. ما الذي حدث لها هناك؟ ما الذي كان في وجه الرجل وأثر بها دون أن تتوقع، وبطريقة لم تتأثر بها من قبل؟

هناك ردّ واضح.. لكنه بعيد عن الحقيقة. لا.. ليس السبب أنه كان وسيماً، أو لأن العجرفة والثقة بالنفس كانتا تبرزان من كل خط من خطوط وجهه.. ولا.. لم يكن السبب كيفية تماوج شعره البني فوق جبينه بطريقة صبيانية.. لا.. لقد رأت الكثير من الرجال من قبل، لكن كان هناك شيء آخر.. نظرة هشة ضعيفة مؤثرة لا

توصف، وحدة رهيبة تحت قسماته القوية.. كانت تأتي وتذهب مع يقظته أو غرقه في الغيبوبة.. وهو يتأرجح بين الصحو والغيبوبة.. كانت تراه يعمل على أن يكبت ما فيه كلما اتجه نحو الصحو.. مثلما كانت هي معتادة بالضبط على كبت مشاعرها المؤلمة.

لكن كان هناك أكثر من هذا.

فحين انفتحت عينا ويلهام الخضراوين العميقتين، كانتا لطيفتين متسائلتين. وبدأتا تدخلان إلى أعماقها حتى أحسّت أنهما تهزان كيانها.

تهزان! رفعت تالي رأسها.. إنها أكثر إرهاقاً مما تصورت، وهذا يبدو من خلال السماح لنفسها بأن تفكر برجل لا تعرفه.. وأثناء تفكيرها بالأمر أغضبها رد فعلها.. فالقليل الذي تعرفه عنه لا يروق لها بكل تأكيد.

كان يجب أن تمقت رجلاً أحمقاً مثله يطير هكذا فوق براري «تشيريكاهاوا» لا أن تحزن عليه.. رجلاً استلزمت رحلته الاستمتاعية الطفولية فريق تفتيش وفريق إنقاذ يعملان طوال الليل، هذا دون ذكر موظفي وعمال المحمية، وخيّالة الغابات، ومكتب «الشريف»، وطيار المروحة، و... حقاً.

خرجت من السيارة ودخلت القسم الثاني من المنزل. ثم تابعت تتمتم وهي تخلع قميصها المتسخ وسروال الجينز وحذاء التسلق السميك.. بسبب ذلك الطيار الخالي من التفكير والمتهور ستكون محظوظة لو تمكنت من منع نفسها من الوقوع نائمة أمام الزبائن في المصرف صباح الغد.. أي هذا الصباح في الواقع. وهي يجب أن تكون في عملها بعد ساعتين.. اللعنة على ذلك الرجل!

رمت نفسها في السرير، مصممة أن تبتعد عن التفكير بويلهام..

وتجحت. . فغفت بعد عشر ثوانٍ. ثم ظهر لها وجهه بوضوح مذهل مبتسم، ردت عليه بابتسامة ومدت يدها لتلمسه.

* * *

٢ ـ تالي تجد رفيقاً

«ويلهام ستاندتش غلايمور يغادر المستشفى اليوم».

نظرت تالي إلى العنوان في الصحيفة ورمتها على الطاولة في غرفة جلوس الموظفين. لقد مرّ أسبوع على عملية إنقاذ غلايمور، ولا يزال اللون الأحمر يتصاعد إلى وجهها كلما ذكرت تخيلاتها في تلك الليلة. سارت نحو إبريق القهوة الآلي وصبت لنفسها فنجاناً كاملاً وهي مسرورة لأن لا أحد كان يشاركها غرفة الجلوس أثناء استراحة بعد الظهر.

انقبضت عند تذكرها تلك النظرة الهشة الضعيفة والوحيدة. . في الواقع لم تكن تعرف أن الطيار الذي سقطت به طائرته الشراعية هو حقاً ويلهام ستاندتش غلايمور لكن هذا لا يغفر لها سذاجتها التي لا تصدق.

كان ويلهام غلايمور قد جذب اهتمام العالم لأول مرة وهو في الثانية والعشرين، حين قرر أن يبحر عبر الأطلسي بمفرده. . صحيح أن هذا كان قد تحقق من قبل، لكن ليس في أواخر شهر تشرين الثاني وفي مركب شراعي ضيق لا يزيد عن ثلاثين قدماً، وبشراعين اثنين. وكما توقع المتشائمون علق وسط عاصفة هوجاء وفشل في الوصول إلى «إنكلترا»، واعتبر انه غرق، وبعد أسابيع ظهر وهو يكاد يموت جوعاً وعطشاً، في جزيرة «غراسيوزا»، من جزر «الآزور»،

غربي «البرتغال» حيث رمت العاصفة بمركبه الصغير.

منذ ذلك الوقت وهو يقوم بمغامرة تلو الأخرى كلها تقشعر لها الأبدان، وقد نشرت كلها في الصحف. وبما أنه وسيم، ثري، وأرستقراطي، فقد وفر للصحافة أخباراً رائعة من نوع آخر. وسرعان ما حوّل نشاطه نحو السيارات السريعة والنساء الجميلات.. لكن لا شيء بدا أنه يأسر اهتمامه لفترة طويلة.. ولا شيء كان يستوقفه لأكثر من أسبوع أو شهر.

بشكل عام يمكن وصفه كما فكرت تالي بأنه رجل معرض للخطر كما هي دبابة الشيرمان تماماً! ووحيد مثل سلطان شرقي، قصره مليء بالحريم.. وبينما هي غارقة في تفكيرها كانت تحرك الحليب المجلف في قهوتها ثم ارتشفتها. من الغريب أن أريزونا ليست البقعة التي من الممكن أن يظهر فيها مغامر عابث مثله.

لو أنّ هذه القصة حصلت أيام الغرب الأميركي المتوحش لكان يمكن أن تكون قصة مختلفة.. فقد تدفق رجال الحدود، وصائدو الجوائز، بالآلاف خلال حمى الفضة وأصبحت المقاطعة شهيرة ببلدات متوحشة حيث كان القانون الوحيد السائد هو المسدس..

لكن تلك الأيام القاسية المحمومة قد ولت منذ أمد طويل، وكذلك البلدات القديمة الفاجرة.. لكن «كونشيزبند» استثنائياً كانت لا تزال موجودة هناك في الفجوة ما بين التلال الحمراء، في المكان عينه الذي طالما كانت فيه.. بقيت حية لفترة طويلة عن طريق منجمي النحاس، بعد أن جفت عروق الفضة.. وهي الآن بلدة صغيرة وادعة في صحراء أريزونا، محترمة، هادئة، وكئيبة.

وكان يمكن لتالي أن تشهد بكل هذا بما أنها كبرت هناك. فالبلدة لم تكن من النوع الذي يمكن أن تجد فيه أشخاصاً من أمثال ويلهام غلايمور فحياتها الليلية مقتصرة على صالة سينمائية، تقفل من

الاثنين حتى الخميس، وقد ترى فيها علماء التاريخ أو مراقبي الطيور أو ربما محبي السير على الأقدام، لكن ليس المتأرجحين من طائرات شراعية أو مطلقو الصرعات.. لذلك من كان يحتاج إلى المزيد من التشويق انتقل إلى «توسكان» أو «فينكس» أو ترك أريزونا إلى كاليفورنيا الجارة المبهجة إلى الغرب، كما كانت تالي تخطط أن تفعل.. في يوم ما.

لا تزال تالي من وقت إلى آخر تجد صعوبة في تصديق أنها حين توفي والدها قررت أن لا تذهب إلى لوس انجلوس مع والدتها وشقيقتها، وأن تبقى في البلدة. إلا أن كل هذا كان خارج الموضوع. فالشيء المهم كان أن تتذكر أنها جعلت من نفسها غبية بالنسبة إلى ويلهام غلايمور، رغم أنه لم يكن يعرف بهذا أحد سواها. لربما كان من الأفضل لها لو خرجت من اللعبة.

لكن الخروج من اللعبة شيء، وسيطرتها على مشاعرها وأفكارها شيء آخر، ولا مجال للإنكار أن ويلهام غلايمور يسيطر على مشاعرها وأفكارها معاً منذ أسبوع إلى الآن.. فقد حرك شيئاً في داخلها بغض النظر عما قرأته أو عرفته عنه وعن الطريقة المثيرة الفارغة التي يحياها، إذ حين ارتجفت رموشه وانفتحت ونظر إليها بعينيه الخضراوين الشفافتين في جزء من الثانية قبل أن ينسدل ذلك الستار المتعجرف الحامي فوقهما، ارتجفت، وارتجفت فعلاً..

لا.. هذا أمر سخيف! لا جدوى منه.. صيباني تماماً، يجب أن تتوقف على الفور! غسلت كوبها الخزفي وعلقته على مسمار في الخزانة، وابتعدت عن غرفة الجلوس بثبات وقد أبعدت كل تفكير بويلهام غلايمور عن رأسها، من السخف أن تمضي فرصة راحتها القصيرة تفكر به! مرّ وقت استراحتها بسرعة فتمنت لو أن وقت العمل يمضي مثله. ومع ذلك من الصعب التذمر، فرغم أن وظيفتها

كانت روتينية، لكنه عمل يوافق السيد انستروذر عليه، ويدعم عضويتها في فريق متطوعي البحث والإنقاذ للمقاطعة.

فتحت باب مركز عملها في الوقت المناسب فرأت نورمان لونغهارنس يندفع عبر أبواب المصرف الزجاجية. كان يمكن لتالي أن تعرف الرجل العجوز النحيل المنحني الكتفين ولو كانت مغمضة العينين فقد كان يجلجل وهو يسير بينما كانت جاد، أمينة الصندوق، مشغولة مع السيدة دانبوري، التي تأتي كل أسبوع من «نيكسفيل» لتنجز أعمالها المصرفية.

قال الرجل العجوز بابتهاج: مرحباً يا سيدتي الشابة.

ووضع عدّة أكياس صغيرة من القطع النقدية المعدنية على المنصة أمامها:

ـ كيف حال صرّافتي المفضلة؟

كان نورمان يمتلك مغسل الثياب الوحيد في البلدة الذي يعمل بقطع النقود. عدّ كل هذه الأرباع والأنصاف، التي يأتي بها مرتين في الأسبوع لإيداعها حسابه، من المهمات التي لا تحبها تالي، لذلك اقترحت عليه مرة أن يلف القطع النقدية كل فئة لوحدها في عدد محدد لأن هذا يجعل الأمر أيسر. حتى أنها عرضت عليه أن تعطيه لفافات.. لكن وجهه تجهّم بشكل مقلق للفكرة فلم يعد لديها الجرأة لتذكر له هذا مرة أخرى.

قال نورمان متشدقاً بسعادة: طقس رائع..

وأخذ يبحث في جيوبه حيث وجد المزيد من القطع النقدية المعدنية، ثم أكمل:

ـ لكنني سمعت أننا سنعاني من طقس باردٍ قاسٍ الليلة.. ما رأيك؟

فتحت تالي أول كيس، وقلبته على المنصة أمامها:

ـ لنأمل أن لا يحصل هذا.. فنحن في شهر آذار.

سخر العجوز ضاحكاً:

ـ هذه ليست قاعدة أبداً ففي الثلاثين من أيار من العام خمس وثلاثين حصلت عاصفة ثلجية مرعبة وكدت أتجمد يومها حتى الموت.. وتلك العاصفة هي التي قتلت ثور أخي دايفد.. لا.. انتظري.. لا شك أن السنة كانت ستاً وثلاثين.. حينها لم يكن لديه ثور.

لو لم تكن تالي منهمكة في عملية عدّ النقود المعدنية لكانت تمتعت أكثر بقصص نورمان.. لكن، والأمر هكذا، كان من الصعب عليها تذكر الأعداد، وفي الوقت نفسه الابتسام وهز الرأس في اللحظات المناسبة.. مع ذلك كان هذا يساعدها على تمضية الوقت.

حين فتح المصرف أبوابه مرة أخرى، وبدأت تعد الكيس التالي.. تهاوى كل شيء من رأسها. الأرباع والأنصاف، وثور دايفد.. كل شيء.. فالضيف الطويل، العريض الكتفين الذي دخل وكله ثقة بالنفس وعفوية، لم يدفع دماغها فقط للتوقف، بل أوقف قلبها أيضاً.. ثم وباندفاع وكأن شخصاً أمسك به وأداره عاد ليعمل مجدداً ويخفق بصوت مرتفع، كان برأيها يسمعه الجميع في المصرف دون شك..

أحنت رأسها فوق النقود بسرعة وقبل أن يراها ويلهام غلايمور، تاركة شعرها الطويل المنسدل على كتفيها يخفي وجهها.

لكنها طمأنت نفسها أن لا شيء يدفعها للقلق.. فالناس عقب تعرضهم للصقيع يبقون مبهوري النظر، لذلك فالشكر لله إذ من المستبعد جداً بل من المستحيل أن يتعرف عليها أو على أي واحد من الفريق.. أو أن يعرف ما كان يجري في دماغها.. ومع ذلك فلن

تخاطر.

لكن لماذا لم يختر المصرف الآخر في البلدة عبر الشارع ليقبض شيكه، بدلاً من الدخول إلى هنا وجعلها ترتجف هكذا؟ وماذا يفعل في مصرف على أي حال ولم يمض على خروجه من المستشفى إلا بضعة دقائق؟ لا شك إنه يحتاج إلى مال يكفي ليخرج بسرعة مما يعتبره بلدة مملّة.. هذا إذا أزعج نفسه في التفكير بها.

تراقصت عينا تالي بدهشة، وسخط يتملك حلقها.. لماذا بحق الله تغضب منه؟ ألأنه يريد الخروج بسرعة من «كوتشيزبند»؟ ولماذا لا يريد هذا؟ وبماذا يهمها الأمر؟ انحنت أكثر فوق النقود. شيء واحد تعرفه.. هو أنها لن ترفع رأسها إلى أن تنتهي جاد من عملها مع السيدة دانبوري وتعامله كزبون عادي، زيارة نورمان لونغهارت ستكون أطول بكثير مما يظن.

مرّت عشر دقائق، وهي تكافح بارتباك لعد الكيس الثاني، ونورمان يخبرها قصة الوقت الذي تركت فيه ابنة عمه جول خروفاً في المصبغة، إلى أن سمعت الكلمات التي كانت تتوق إليها.

ـ وداعاً الآن سيدة دانبوري، وامضي أسبوعاً لطيفاً.

أبقت تالي رأسها منخفضاً على الرغم من الألم في عنقها، تُرى ألا يزال واقفاً هناك؟ ربما دفعه الانتظار طويلاً للخروج إلى المصرف الآخر.

لكنه كان هناك.. وعرفت هذا حين سمعت جاد تشهق، وتخفض صوتها العملي الثابت في العادة درجتين عن المعتاد.. إلى حدّ بدا كنغمة «الساكسفون».

ـ أستطيع أن أساعدك هنا سيدي؟ سأكون سعيدة بمساعدتك.. سعيدة جداً.

يا إلهي.. إذا كانت هي الطريقة التي تتجاوب فيها عادة النساء

الغريبات مع هذا الرجل.. فلا شك إذن أن يكون لويلهام غلايمور اعتداد ضخم بنفسه!.. كم هي سخيفة جاد كي تستسلم بارتجاف لمجرد.. واختنقت تالي.. فهي بالكاد في موقف تستطيع منه أن تحكم.

ـ لا.. شكراً. أنا أنتظر لأتحدث إلى الآنسة بيلارد.

الصوت كان منخفضاً رنانّاً، ويُظهر أن لدى صاحبه ثقة بنفسه وكأنه يملك هذا المصرف.. رفعت تالي رأسها بحدة فوجدته ينظر إليها لا إلى جاد، بعينيه الخضراوين الصافيتين الآسرتين.. اللتين حين التقتا بعينيها، وتشابكتا معهما، لم تعد قادرة على الإشاحة عنهما بقدر ما لم تعد قادرة على إيقاف خفقان قلبها. وافتر فمه الصارم عن ابتسامة عريضة.

أشارت إلى جاد وهي تنظر إليه بثبات ويرود قدر استطاعتها، رغم أن قلبها ينبض بسرعة قاتلة:

ـ أخشى أن أكون متأخرة قليلاً.. أنا واثقة أن الآنسة ترلزون سوف..

ـ أوه.. يمكنني الانتظار.

وأجبرت نفسها على تركيز اهتمامها على زبونها عندما وعت أن عيني ويلهام الباردتين المتحديتين تابعتا تقييمها بصراحة محرجة، وقال نورمان بعد أن أعطته تالي وصلاً بالمبلغ الذي أودعه:

ـ شكراً لك تالي..

ونظر من فوق كتفه إلى الغريب المنتظر ليتكلم مع أمينة الصندوق المفضلة عنده، ثم التفت ناظراً إليها نظرة خبث لم ترها في عينيه من قبل، وقال هامساً:

ـ حسن جداً الآن.. لقد آن لك أن تحصلي على حبيب.. فتاة جميلة مثلك!

استدار العجوز وغمز ويلهام، وابتعد راضياً.

تمنت تالي لو كان هناك جحر تختبيء فيه.. وبدلاً من ذلك كل ما استطاعت أن تأمله هو أن لا يكون خداها بالاحمرار الذي تحس به.. وابتسمت معتذرة حين تقدم ويلهام إلى المنصة:

ـ أنا آسفة لهذا سيد غلايمور.

فضحك بفتنة:

ـ سيد غلايمور؟ آخر مرة رأيتُ فيها هاتين العينين الرماديتين المحدقتين بي كان الاسم «ويلهام».

ـ حقاً.. سيد غلايمور..

ـ ولا داعي للاعتذار عن الرجل العجوز. لقد صنع معي معروفاً.. الآن وقد عرفت أن لا خطيب لك ينتظر، أستطيع أن أطلب منك تناول العشاء معي الليلة وضميري مرتاح.. متى آتي لآخذك؟

كبحت تالي اندفاعاً مجنوناً لتستدير وتهرب:

ـ عشـ.. عشاء؟

ـ يمكنني أن أقول إن هذا أقل ما يمكن أن أفعله.

ـ حسناً.. أنا..

كانت مهيأة لسماع خطاب شكر بسيط منه فأحياناً يسعى الناس إلى فريق الإنقاذ شخصياً لشكرهم.. لكن هذا أجفلها، وعرفت أن الإجفال بادٍ عليها.. وكرّر بجرأة:

ـ إنه العشاء.. أظن أن هذا ما يسمونه هنا في «كوتشيزيند»؟ ولا تفكري أبداً بالرفض.. فأنا لا أقبل «لا».

ـ حقاً، هذا غير ضروري أبداً.

أجفلت للنسلية الظاهرة في عينيه، لا تستطيع لومه نظراً للطريقة الغبية التي كانت تتصرف بها، وأكملت:

ـ كنت ببساطة أقوم بواجبي.. وإذا أردت أن تفعل شيئاً كرد

للجميل، فإن فريقنا يمكنه دائماً الاستفادة من التبرع بمعدّات جديدة.

ضحك قائلاً:

ـ لقد جئت لتوي من مكتب الشريف حيث وضعت شيكاً.. بمبلغ كبير.. متى ينتهي عملك؟ في الخامسة؟

أجفلت تالي من تصرفه المتكبر وارتفع ذقنها بثبات، كادت تقول له رأيها فيه بصراحة، لكنها لم تستطع سوى أن تشعر بأن بقية موظفي المصرف كانوا يسترقون السمع، دون خجل.. إضافة إلى هذا، كان هناك شيء في طريقة نظر ويلهام إليها جعلها تعدل عن هذا.. وهي تشك كثيراً في أنها قد تنجح في مواجهة مكشوفة لصراع إرادات.

أخيراً قالت متصلبة آملة أن تثبط لهجتها الباردة من عزيمته:

حسناً.. أجل.

لكن عزيمته لم تفتر.. بل وجد هذا مسلياً، وهذا هو الأسوأ.

ـ جيد.. رد فائق الذكاء. أراك عند الخامسة.

ومنذ اللحظة التي خرج فيها لم تستطع تالي أن تقرر ما هو الأسوأ.. فكرة العشاء المتوقع مع ويلهام غلايمور.. ويلهام غلايمور! أم الاهتمام الكبير لزملاء عملها بهذا الانقلاب المفاجيء للأحداث.

ما إن أقفل الباب خلفه حتى صاحت جاد، والحسد يطغى على وجهها:

ـ تالي، يجب أن تذهبي إلى المنزل لتغيري ملابسك وترتدي شيئاً أكثر أناقة! لا يمكنك الخروج هكذا.. معه!

اقتربت جولي موظفة القروض بسرعة وقالت لتالي:

ـ لم أستطع إلا أن أسمع.. أنا واثقة أن السيد أنستروذر

سيعطيك فرصة للذهاب إلى المنزل وتغيير ثيابك.. أعني أن هذه مناسبة مميّزة!

وما هي المناسبة المميّزة؟ أن يطلب ويلهام ستاندتش غلايمور الشهير من فتاة مغمورة في بلدة صغيرة أن تخرج معه إلى العشاء؟ أم لأن نانالي بيلارد لديها موعد؟

هزت رأسها أخيراً، وقالت بتصميم نقرأ في عيونهما الرد على سؤال كان يزعجها.

ـ لن أحلم بالتطفل على السيد انستروذر لشيء لا أهمية له كهذا.

منذ متى بدأ الموظفون وأهل البلدة يفكرون بها كعانس؟ صحيح أن هذا لا يهمها أو هكذا أقنعت نفسها وهي تعود إلى متابعة عملها بجد، لكن في الحقيقة لم تكن قادرة على وضع فكرتين منطقيتين معاً، ساعة ونصف حتى الخامسة بدت وكأنها تسعون ساعة.

كان ويلهام ينتظرها خارج مدخل الموظفين. ولاحظت على الفور أنّه استغل الوقت ليغير ثيابه. وأحست بالإطراء لكن بإحباط أكثر مما مضى، فقد كان مذهلاً في أناقته.. بل أكثر من هذا، ملابسه، وقفته، كل شيء حوله، كان ينضح إحساساً محسوساً بالأناقة العفوية.. أمر غريب فهي لم تكن على صلة من قبل بمثل هذه النوعية، ولا تعرف أنها موجودة، مع ذلك لا مجال لأن تخطيء فيها أبداً.

كان مستنداً، وذراعاه مكتفتان، إلى سيارة بورش مسترخ وواثق من نفسه. حين شاهدها، استقام مبتسماً.

ردت نالي الابتسامة عيناها تتجهان إلى السيارة الرياضية.. وتساءلت ما إذا كان لديها الشجاعة لتصعد إليها.

تحرك ليفتح لها الباب ومخطئاً في تفسير نظرتها إلى السيارة،

سألها مبتسماً:

ـ أتحبين السيارات الرياضية؟

ـ لا.. ليس تماماً.

كانت المرة الأولى التي تراه مجفلاً ولو قليلاً. أمال رأسه إلى جانب ورفع حاجباً أسوداً ثقيلاً وأقفل بابها.. في الداخل، وجدت نالي سبباً جديداً لكراهية السيارة.. المقعدين المخصص كل منهما لشخص واحد والفسحة الضيقة في الداخل، كانت تفرض عليهما تقارباً أرادته أم لم تُرده. وبما أنها كانت تحس بوجوده لم يعجبها هذا التقارب أبداً.. وتحركت بغير ارتياح.

قال منشدقاً، وقافزاً إلى إستنتاج خاطيء آخر برؤيته لقلقها:

ـ هل ستسترخين قليلاً لو وعدت بأن لا أسرع؟

هزت رأسها بحرارة.

متسلياً، أدار محرك السيارة، أخرجها ببطء من موقف السيارات.. وقال بوصوله إلى تقاطع «ماين ستريت»:

ـ كنت أفكر بفندق «كوبرکنغ». هل هذا يناسبك؟

الفندق المبني في أوائل القرن خلال ازدهار البلدة كان لا يزال أهم معالمها، وأفضل مكان للعشاء. كان يجب أن تسعدها الفكرة.. لذا لماذا يسيطر عليها ذعر غامض؟ وهي لا تزال معقودة اللسان هزت رأسها.

الرحلة لحسن الحظ كانت قصيرة.. وكان يمكن أن تكون أقصر بكثير لو أن ويلهام لم يقد السيارة ببطء كبير مبالغ فيه، حتى أن البورش كان يمكن أن تحمر خجلاً.. وهي صاعدة معه سلم الشرفة المسقوفة للفندق، فتشت عن شيء لطيف تقوله لكسر حدّة الصمت المريك.

لكن ويلهام سبقها.

قال بشير إلى بوابتين متحركتين للمقهى الذي ينفتح نحو الفناء:

ـ ما رأيك بشيء نشربه أولاً؟

هزت رأسها راغبة.

أوقفها بلمسة على ذراعيها:

ـ تالي.. أنت تتكلمين.. أليس كذلك؟ أنا واثق أنك تتكلمين.

ضحكت:

ـ مرطب قبل العشاء يبدو رائعاً.

قال بأدب:

ـ أتعرفين؟ المكان مقبض قليلاً هنا.. لا أعرف عنك شيئاً لكنني بحاجة إلى هواء نقي. ألا يوجد طاولات في الخارج؟

ودون أن ينتظر ردّها قادها إلى الشرفة المجاورة.. حيث تركها جالسة إلى طاولة حديدية مشغولة في مواجهة أشعة الشمس الغاربة، وذهب ليحضر الشراب.. لن تلومه لو أطال الغياب.. في البداية كانت خائفة من سيارته، وهي الآن تبدو أسوأ نساء الأرض مبالغة في الخجل.. ولم تكن محدّثة لبقة حتى الآن.. لا شك أنه بدأ يندم لكرمه المتهور ويتساءل كيف سيمضي أمسيته؟

* * *

٣ ـ حظ الشيطان

عودته السريعة تحدثت عن ثباته.. وشكرته على كوب العصير الذي وضعه أمامها.

جلس على المقعد المواجه لها واضعاً ساقاً فوق ساق.. ابتسم لها بخشونة وهو يرتشف قليلاً من عصيره مع الصودا.. ثم قال:

ـ أخبريني.. هل أنت عادة هكذا ثرثارة أم أنك تثرثرين هذه الليلة بشكل خاص؟

ووجدت نفسها تضحك:

ـ أنا آسفة.. أعتقد أن دعوتك لي كانت غير متوقعة حتى أنني فقدت القدرة على الكلام قليلاً، بصراحة اعتقدت أنك غادرت كونشيربند وأريزونا، لحظة تركوك تغادر السرير.

ارتسم التوتر على وجه وبلهام لدهشتها، ولأول مرة قدحت عيناه الخضراوان الباردتان غضباً:

ـ أنا مدرك تماماً أن لي سمعة المتهور، ولقد حاولت جهدي لمحو هذه السمعة.. ونظراً للحادث المؤسف في الأسبوع الماضي..

توقف.. وحينما عاد لمتابعة كلامه كان لصوته رنة قاسية لم تسمعها منه من قبل:

ـ لكنني لست واثقاً أنني أقبل أن يفكر بي أحد كشخص يدير

ظهره ويرحل دون كلمة شكر.

ـ لكنني لا أعني هذا أبداً.. كل ما عنيته هو أنني لا أتصور أنك ستجد شيئاً يثير اهتمامك هنا.. إنها زاوية هادئة من العالم.. ومجرد رسالة شكر بسيطة كانت تكفي.

تلاشى انزعاجه بسرعة كما أتى:

ـ أهذا ما يحصل عليه فريقك عادة.. مجرد رسالة؟

ارتاحت لنقل الحديث من المستوى الشخصي:

ـ أوه.. الأمر مختلف.. أحياناً يعبر الناس عن امتنانهم برسالة صغيرة أو تبرع، وأحياناً نتلقى الشكر شخصياً، وأحياناً لا شيء إطلاقاً.

ـ ألا يجعلك هذا تغضبين؟ قيل لي في المستشفى إنكم كلكم متطوعون.. ولا تنالون أجراً.

ارتشفت عصيرها وهزت كتفيها:

ـ أنا لا أفعل هذا لأجل العرفان بالجميل.. وبالطبع لن أفعل لأجل المال.

نظر إليها من فوق كوبه:

ـ حسن جداً.. لقد هزمت.. لماذا تفعلين هذا؟ لا شك أنه عمل صعب وأنك تشاهدين مناظر كريهة.. فكيف تورطت بمثل هذا؟

ردّت على نظراته الثابتة، المهتمة، ولذهولها كادت تبوح له. لكن هذا أمر لم تحدث به أحداً من قبل.. وعلى الأرجح لن تفعل أبداً. إنه سرّ عميق جداً ويؤلمها جداً.. مع ذلك من المستهجن أن يكون هذا المتهور الغريب الذي لا شيء مشترك بينهما والذي يمكن أن لا تراه مجدداً، وعلى الأرجح أن لا يذكرها في الأسبوع القادم هو الذي كاد يخرج سرّها من صدرها.

ردّت متصلبة:

ـ هناك العديد من الأسباب.. منها مثلاً الهواء النقي وهو تغيير بريح من أجواء المصرف..

أنهت شرابها وقالت:

ـ هذا العصير لا شك فتح شهيتي للطعام!

ابتسم وبلهام بفتنة دون أن يخدعه تملصها:

ـ أعتقد أن هذا يعني أنك لا زلت غير راغبة في الكلام، لكن راغبة في الطعام.

أنهى شرابه وأكمل:

ـ حسن جداً.. فلنأكل إذن.

ألقى نظرة سريعة على قائمة الطعام وطلب لهما معاً لحم عجل مسلوق مع الهليون وزجاجة مرطبات.. وأحست بشيء من التوتر، وكادت تقول له أنها قادرة على أن تقرر لنفسها ما تريد. لكنها عدلت عن ذلك ولجمت لسانها.. فهو على الأرجح معتاد على النساء اللواتي يستسلمن في حضوره.

قال بعد ابتعاد عاملة المطعم مع الطلب:

ـ هل ستظنين أنني أتعمد التكبر لو قلت إنني مندهش لأناقة هذا المكان؟

ردّت بخفة:

ـ أجل، لكن بما أن هذا سيكون إطراء الكوتشيزبندء فإنني أسامحك.

نظرت حولها إلى الجدران الكحلية وكسوتها البيضاء، الخزائن الضخمة المليئة بالأثريات، النوافذ ذات الزجاج الملوّن.. كانت الغرفة مليئة بالماضي.. ماضٍ مزدهر غني.. كانت معظم الأنوار تأتي من مصابيح زجاجية شرقية، أضفت على الأثاث الخشبي القديم

نوراً هادئاً.. المكان هادىء إلاّ من رجلين يتهامسان يظهر أنهما بائعان متجولان، وكانت الغرفة لهما وحدهما.

قالت تالي:

ـ أحب أن أتصور كيف كانت هذه الغرفة في مطلع القرن. كانت النساء في تلك الملابس الرائعة..

نظرت باكتئاب إلى تنورتها وقميصها الخضراوين اللذين ارتدتهما طوال النهار:

ـ أنا آسفة أنني لا أرتدي ملابس لهذه المناسبة.. وكنت أتمنّى لو ارتديت شيئاً أجمل.. كنت متعبة جداً في العمل.. ولم يكن لدي فرصة لتغيير ملابسي.

لماذا تحاول إقناعه أن هذا الموعد للعشاء مهم لها بينما هو غير ذلك؟ أم أنه مهم؟.. لا .. إنه ليس مهماً. على أي حال كان بإمكانها الذهاب إلى المنزل للتغيير، لكنها فضلت أن تبقى في الثياب نفسها التي تستخدمها للعمل.. فما هي أهمية الموعد إذن؟

قال ممازحاً:

ـ حسن جداً.. سأترك الأمر يمر.. ولو أن هذه مناسبة مهمة جداً.. أول طعام لي خارج المستشفى منذ أسبوع. وأرجو أن لا تعتبري كلامي إهانة للبلدة لو قلت أن مستشفاكم لا يعرف كيف يحضر لحم العجل.. لكنه ليس سيئاً في تحضير الحساء.

ضحكت، وبينما كان يصب العصير استفادت من الفرصة لتراقب وجهه علّها تجد فيه أثراً ما لحادثة الأسبوع المنصرم.. كانت الآثار قليلة جداً: اسمرار في البشرة مع قليل من الشحوب والتعب على الوجه، وكأنما قد فقد بعضاً من وزنه.. لكن هذا جعله يبدو أكثر وسامة. لقد كان محظوظاً كحظ الشيطان.. ومن حيث لا تدري برز قول قديم إلى أفكارها: الشيطان يعتني بنفسه!

من أين أتى هذا القول الآن؟ وعلى ماذا يدل؟ أهو تحذير لنفسها من نفسها، أم ماذا؟ من المؤسف أنه قادر على إرباكها، ومن الأفضل أن تتوقف عن إرباك نفسها.. فهذا كله كثير..

قاطع أفكارها:

ـ شكراً لمساعدتك لي هناك.

أحسّت تالي بالتأثر أكثر مما يجب لتصريحه:

ـ أتعرف؟ يجب أن تنسى أنك خرجت لتوك من المستشفى.. وعليّ أن أقول لك بأنك نجوت بأعجوبة.. نظراً..

قاطعها:

ـ لن تبقي على ظنك هذا لو شاهدت كدماتي.. لم أكن أعرف بوجود هذه الألوان الزرقاء المتدرجة! لكنك محقّة، لقد نجوت بأعجوبة. في الواقع، ثلاثة أو أربعة أيام في المستشفى كانت أكثر من كافية، لكنني بقيت أسبوعاً لأرضي مارك.. مارك ميلورد، الصديق الذي كنت أقيم معه والذي حطمت له طائرته الشراعية. أقل ما يمكن فعله هو أن أتبع نصيحة طبيبه.

ما أدهش تالي، أنه وبالرغم من اهتمامه بمصلحة صديقه، فإن قلقه على نفسه، وعلى من أتى لمساعدته حين أوقع نفسه في المتاعب، كان مسألة ثانوية. إنه بحاجة إلى كلام قاسٍ أو ركلة سريعة قوية.. إن مجرد كونه ثرياً ساحراً ومشهوراً، لا يعطيه الحق أن..

ها هي تعود مرة أخرى تفكر به وأطرافها تصطك، ولا دخل لها بالموضوع.. صحيح أنها لم تكن محدثة لبقة إلا أنها كانت تحاور نفسها حواراً غادراً وتذكّرت بحدّة: كيف يحيا ويلهام ستاندتش غلايمور حياته ليس من شأنها.. إطلاقاً.

وصل الطعام، أكلت بضع لقمات ثم سألت:

ـ مارك ميلورد.. يبدو هذا الاسم مألوفاً لي بشكل غامض، لكنني لا أدري كيف.

ـ إنه يملك مزرعة قرب «فيستا».

ـ أوه.. فهمت.

هذا أعطاها أجوبة لعدة أسئلة حول ماذا كان يفعل ويلهام قرب «كونشيزبند». فهو لم يكن قربها أبداً.. فليستا بلدة صغيرة قرب حدود أريزونا.. على بعد ثلاثين ميلاً من هنا.. إنها البوابة إلى جبال تشيريكاهوا من الجهة الأخرى للسلسلة.. الجانب الشرقي.. أوصلها عملها الإنقاذي إلى هناك عدة مرات وشاهدت بنفسها أن مركز البلدة كمنتجع للنوادي الريفية استحقته بجدارة.. المناظر هناك جلبت عدداً لا يستهان به من الأثرياء، اشتروا هناك مزارع أو بساتين فاكهة، وبعضهم قد اشترى ببساطة جبالاً كاملة ووديناً، بنوا فيها منازل ضخمة.

كان ويلهام أثناء الطعام يقص عليها القصص المرحة عن أيام صديقه الأولى في المزرعة، والتي اشتراها تحت وهم أن الحيوانات المؤذية مثل أفعى الجرس، والذئاب، وأسود الجبل، أصبحت شيئاً من الماضي. حين انتهى من هذه القصص استطرد إلى الحديث عن مواضيع مختلفة من الفن إلى صناعة الخزف، ومن المعارض إلى علم الحيوان.

كان رائعاً أنه جعل كل المواضيع آسرة.. ولولا بداية السهرة المتوترة وارتباكها بسبب تلقيها العرفان بالجميل لانقلبت السهرة إلى أجمل الأوقات التي أمضتها منذ سنوات. لقد توقعت أن يكون جريئاً ومسلياً، لكنها لم تتوقع أن يكون في هذا المستوى الفكري الذي يثير اهتمامها.

ألقى نظرة على قائمة الحلوى:

ـ ما رأيك أن نرمي الحذر في مهب الرياح ونطلب قالب حلوى بالقاري بالجبن؟ مع القهوة؟

ـ لو كان بالإمكان تغطيته بالفريز فأنا موافقة. وأجل.. القهوة بالتأكيد.

لا بد من القهوة فهي قد بدأت تحس بالتعب والإرهاق، ومن عادتها النوم باكراً.. إنها تحس وكأنها تطفو فوق المائدة. إضافة إلى هذا أنها كانت مركز اهتمامه، مما زادها قلقاً.. فهناك أكثر من عرفان بالجميل في عينيه الخضراوين الباردتين الآن.. وهي محرجة بفكرة أنه ربما يقرأ أفكارها.

حين عادت عاملة المطعم بالقهوة والحلوى، جلبت معها إبريق عصير.. فتنهدت تقول:

ـ ربما لا يجب أن أشرب شيئاً غير القهوة.. لا أريد إطالة المكوث هنا لأنني في الغد يجب أن أستيقظ باكراً لأذهب إلى عملي.

ـ آه.. الغد.. لا يجب أبداً أن تقلقي على الغد. فالعالم يجب أن ينتهي في يوم ما.. والليلة مثلها مثل أي وقت آخر.. وقد لا يكون هناك غد.. لذا لا فائدة من حرمان نفسك أية متعة اليوم.. أنا أفكر بأن أسمّي هذا «قانون غلايمور».

وضحك ضحكة صبيانية مشرقة خفيفة.

راحت تفكر بما جرى فيما بعد، وعرفت أن نهاية السهرة كانت محتمة.. رغم عدم وجود ما يشير إلى أن الأمور قد تسير إلى الأسوأ إلى أن غادرا الفندق وأخرج ويلهام من جيبه محفظة جلدية تحمل مفاتيحه.

قالت متمتمة:

ـ ويلهام.. ! أنت لن تقود السيارة، أليس كذلك؟

رفع حاجبه: ولِمَ لا؟

ـ أنت متعب ولست في حالة صحية تسمح لك بالسيطرة على المقود.. قد تظن نفسك قادراً لكنك لست كذلك.

وتابعت ضاحكة:

ـ وأنا كذلك لست واثقة أنني قادرة على السير حتى منزلي.

أنوار الشارع أضاءت البسمة المتعجرفة:

ـ تالي.. أعرف تماماً ما هي قدراتي، صدقيني.. ولو لم أكن مسيطراً على نفسي لعرفت هذا.

لماذا تحدثه بهذه اللهجة القارصة؟ إنها غاضبة من نفسها وليس منه.. وإغضابه هكذا لن يخلصها من الألم الذي تحمله في أعماقها منذ أربع سنوات.. قالت بصوت هامس:

ـ ويلهام.. أعرف أنك على الأرجح تظنني من النوع.. النوع..

قال يساعدها:

ـ المزعج؟ الساذج؟ المتكبر؟ المتزمت؟ لا.. ما الذي يجعلني أظن شيئاً كهذا؟

لمعت عيناها الرماديتان الزرقاوان.. ولم تكن تدري أكانت غاضبة أم قريبة من البكاء، وقالت متصلبة:

ـ افعل ما شئت.. سأعود إلى المنزل سيراً على الأقدام.

استدارت وبدأت المسير ورأسها مرتفع، لكن أذنيها كانتا تصغيان جيداً لسماع أي صوت ورائها. هل هو قادم خلفها؟ أتريده أن يلحق بها؟ أم كانت تأمل من كل قلبها أن لا يفعل ذلك؟ لكن كل ما سمعته كان وقع قدميها وخفقان قلبها بنفس الوتيرة.

فجأة كان إلى جانبها:

ـ مهلك لحظة. سأستدعي لك سيارة أجرة.

إنه يعترف بالهزيمة ويبدو أنه غير معتاد عليها.

ـ لا.. شكراً لك.. وصدقاً لا أريدك أن تأتي معي.. فأنت خارج لتوك من المستشفى و...

اسودّ وجهه غضباً:

ـ انسي الأمر.. لن أدعك تعودين لوحدك إلى منزلك.

رفعت رأسها متحدية:

ـ أنا قادرة تماماً على العناية بنفسي.. شكراً لك، وعمت مساء.

زاد من قلقها أنه سار معها، خطوة واحدة منه مقابل خطوتين منها، وتمتم شيئاً لم تفهمه، هذا ليس مهماً لأنها فهمت الرسالة العامة. وردت بتوتر:

ـ هذا تعصب رجولي منك.. أنا لا أحتاج إلى مساعدة للوصول إلى منزلي.

أسرعت بخطواتها لكنه تابع سيره معها دون جهد يذكر.. وأشار بيده وقد نفد صبره:

ـ لنقل انني أسلّي نفسي.. سأشعر بالذنب لو أنك هوجمت على الطريق من قبل شخص مسكين، لا يعرف أن عينيك الزرقاوين المثيرتين، وجسمك الطويل الجميل، هم في الواقع خلف بطانية مبللة، تفسد متعة الآخرين.

الدم الذي أخذ يسخن وجهها للإطراء الذي ظنته يوجهه إنها جف فجأة مع كلماته الأخيرة.. وتابعت سيرها على غير هدى لتبتلع دموعاً ساخنة غير متوقعة..

بطانية مبللة؟ كيف يمكن لكلمتين بسيطتين كهذه أن تعيدا إليها كل شيء وكأنه حدث بالأمس؟

كانت قد ضحكت وهي تقول:

ـ هيا الآن غراي.. لا تكن كالبطانية المبللة تفسد متعة

الآخرين!

وضحك بدوره واستسلم.. ثم.. أكان هذا حقاً منذ أربع سنوات منذ مات؟ أربع سنوات مرت بسرعة البرق.. أربع سنوات حوت العمر كله.

خطوة مفاجئة نحو لا شيء خطفتها من ماضيها.. لقد خطت دون أن تدري فوق رصيف المنحنى وكادت تقع لولا ردّة فعل ويلهام السريعة.

قال بخشونة:

ـ أيمكنك أن لا تلوي كاحلك؟ يكفي سوءاً تسلق تلة مرتفعة ومعدني ممتلئة، وأكره أن أضطر إلى حملك.

بغضب جذبت ذراعها من قبضته:

ـ لن أدعك تحملني ولو عبر حقل موحل.

ورمقته بنظرة كانت كفيلة أن تسمره في موضعه. لكن هذا لم يحصل.. وضحك بمرح:

ـ مخطئة في الزمان.. فرجال هذا القرن قد توقفوا عن فعل هذا منذ أمد بعيد، حتى نحن المتعصبون.. أتعرفين، لا أستطيع منع نفسي عن التساؤل كيف تورطت في فريق للإنقاذ.. كنت أعتقد أن أعمال الإبرة وخبز البسكويت في منزل للعجائز هو كل ما تحتاجين إليه من إثارة.

كلامه هذا لا يستحق حتى الرد.. واستدارت تالي فوق ممر مرصوف يقود إلى منزل مظلم.. لم يكن منزلها.. لكنه لن يعرف هذا.. وإذا لم يبتعد ويتركها وشأنها في الحال سوف تنفجر صارخة.

استدار يكمل مزاحه:

ـ بالطبع وجدوا لك عملاً جريئاً بما يكفي.. الإمساك بيد

الضحية المسكين والتمتمة بكلمات حلوة تشجيعاً.. هذا افتراضاً أنه كان في مكان لطيف آمن.. وليس مستلقياً عند حافة الهاوية.

قالت بحرارة:

ـ لمعلوماتك سيد قيلوز..

ثم صمتت.. فما الفائدة؟ لماذا تزعج نفسها بالقول إن «تمتمة الكلمات الحلوة تشجيعاً» هي من ضمن مهمتها التناوبية، وما حدث أنها كانت في دورها حين وجدوه؟ إضافة إلى هذا أنها لم تكن مهمة سخيفة ومختصة بالنساء العجائز، كما يريد أن يصورها.. بل إنها مهمة حيوية وشاهدت بأم عينها أنها قادرة على ردّ أية صدمة لضحايا نصف أموات وردهم من على شفير الموت.

انتظر أن تكمل، حاجباه مرفوعان.. حين لم تفعل، تابع، نبرة صوته كحد السكين:

ـ علي أن أقول إنه مع نوعية جرأتك.. أم عوزك لها، كان الفريق يواجه صعوبة أن يجد لك شيئاً آخر تفعلينه.. خاصة وأن الناس لم يعودوا بحاجة إلى لفافات.

كانت محتارة من خلال غضبها، تتساءل لماذا هذه السخرية المريرة؟ وهذه الأخلاق السيئة؟ كان يبدو وكأنه يقلدها.. يطعنها بنصال حادة من غضبه هو.. لكن لماذا هو غاضب هكذا؟.. لا.. لا تريد أن تعرف، ولا تريد أن يكون لها شأن معه.. ففي فطرسته طريقته المتأمّرة، كان يشبه كثيراً العنيدة المشهورة التي كانتها يومها.. وهي تمقت اندفاعه المتهور نحو الحياة بقدر ما كرهت يوماً نفسها.. ردّت بابتسامة باردة:

ـ هذا استفزاز كبير منك. والآن بعد أن ملأتني نقداً واستهزاءً وأوصلتني سالمة إلى عتبة داري، يمكنك أن تودعني وتذهب في طريقك.. وتنسى كل شيء يتعلق بي!

من الأفضل أن يذهب.. فماذا ستفعل لو فتح من يسكن هنا الباب؟

كانت تنتظر منه أن يستدير على عقبيه ويتجه إلى الرصيف في الخارج، لذا كانت مفاجأة كبيرة لها حين شدّها إليه بخشونة، وكانت مذهولة جداً وهي تقاوم تأثير عناقه لها.

كانت تعي طوال الأمسية وبحذر شديد تأثير قوة جاذبيته عليها، لكن هذا الوعي لم يوصلها لهذا.. حتى ولو لم تسمّرها ذراعاه حتى بالكاد تستطيع أن تتنفس، عدا عن أن تقاوم، ما كانت قادرة أن تجذب نفسها بعيداً، ولما احتجت، ولا فعلت أي شيء، بل كانت فعلت ما فعلته الآن بالضبط.. كانت ستقف، رأسها يترنح ويدور، والعالم المظلم يلف من حولها.. ستقف ووجهها مستدير بانقياد وخضوع إليه.

كانت أنفاسها في حال يائسة حين ابتعد عنها قليلاً، وأنفاسه لم تكن أفضل حالاً.. وقفا مسمرين للحظات.. ينظران بعمق إلى عيني بعضهما.. ثم، وكأنما أسدلت ستارة، اسودّ وجهه وتركها تحدق خلفه مشدوهة العينين.

بوضوح وكأنه قال لها، عرفت تالي أنه أمضى أسبوعه في المستشفى يفكر فيها، كما حلمت تماماً وهي تفكر فيه.. وكان واضحاً كذلك أن ناتالي بيلارد في الحياة الواقعية لم تكن تشبه المرأة التي استحضرها في ذهنه. لكن كيف يمكن هذا؟ لقد تذكرها من خلال نصف وعي.. لكنها لم تكن ذلك الطيف الحلم الذي يرود أمكنة عالية مثل «تشيريكاهوا» بل كانت لحماً ودماً.. ولديها الكثير من الأخطاء مثلها مثل بقية البشر.. وربما أكثر بقليل.. ببطء هزت رأسها.. من كان يفكر..

كم سيحتاج من وقت لينساها؟ تساءلت بقلق. حتى دون محاولة

أقصى جهد له تراهن أن هذا سيكون بعد يومين أو ثلاثة..

والسؤال الأكثر أهمية هو: كم سنحتاج هي من وقت كي ننساه؟

* * *

٤ ـ يهبط من السماء

جلست تالي مكتئبة إلى طاولة المطبخ، تنظر بقرف إلى البيض المقلي والنقانق التي أجبرت نفسها على تحضيرها للفطور. ماذا عن إفراطها في عشاء الأمس، وما تلاه من مشهد عنيف؟ والليلة القلقة التي استفاقت منها متوعكة الصحة؟.. لقد علّمت نفسها منذ زمن بعيد قيمة الفطور.. أو بالأحرى تعلمت هذا في أول تدريباتها في فريق الإنقاذ. فإذا كان من المتوقع أن تنطلق إلى البرّية في أية لحظة ودون سابق إنذار، لتبقى هناك يومان أو ثلاثة، وقد بقيت مرة ستة أيام معظمها في وسط عاصفة ثلجية في كانون الأول، فمن واجبها أن تبقي جسمها مليئاً بالوقود.

وقود.. ابتسمت بخشونة لنفسها.. بعد الطريقة التي ذابت فيها بين ذراعي ويلهام ليلة أمس أصبح من الواضح جداً أن النقانق ليس كل ما تتوق له.

كم أحست أنها حية حين احتضنها! وإذا كان الدم الأحمر الساخن قد عاد ليجري في عروقها، فإن ويل غلايمور قد أدّى لها خدمة كبيرة.. لقد جعلها تتذكر كيف تحس كامرأة. لقد كان مثل نسر حرّ مرتفع هبط إلى الأرض، وكان له عيث قصير مع عصفورة بشرية شدّت هواه مؤقتاً. ولا شك أنه عاد إلى حيث ينتمي في الفضاء البعيد الآن.. هذا إذا لم يكسر عنقه وهو يقود سيارته إلى «أيستا» ليلة أمس.

وهي تتذكر، قضمت قطعة توست.. ربما لا توافق كونشيز النسور.. لكن هناك الكثير من الصقور هنا.. لو أنها فقط تترك نفسها تصبح أكثر تقبلاً لاهتمامهم، فمن المؤكد أن يجذب اهتمامها شخص مثلما فعل ويلهام.. بكل تأكيد.. لا شك في هذا.. وتنهدت تدفع طبق الطعام بعيداً.. إنها ليست جائعة هذا الصباح.

صوت جهاز الاستدعاء للطوارىء معها دفع بكل شيء من رأسها، كما دائماً.. أسرعت إلى جهاز اللاسلكي المحمول الموجود فوق رف المطبخ، وقد أصابتها موجة خوف.. لقد كان ويلهام غاضباً منفعلاً ليلة أمس.. وربما انقلبت به سيارته فوق الطريق الضيّقة المؤدية إلى «أيستا»، وقد اكتشفوا لتوهم سيارته في أسفل الوادي.. أدارت الجهاز بأصابع مرتجفة.

كان صوت الشريف جيبسوري الحازم يصرح بالكلمات المعهودة: «أرجو الانتباه.. فريق البحث والإنقاذ في «كونشيز».. لدينا تقرير عن وقوع ضحية من فوق حافة جبل في منطقة كيواكانيون...».

تنهدت تالي ارتياحاً.. لا يمكن أن يكون هذا ويلهام! وأجبرت تفكيرها على العودة إلى الراديو، وهي تذكر نفسها بأن تتوقف عن التفكير برجل مثل ويلهام.. إذا كان لا يقلق على نفسه، فلن تقوم هي بذلك عنه.

«... أرجو الحضور فوراً إلى مركز الانطلاق، على بعد نصف ميل غربي منجم «التايغر» القديم النهى».

«كيواكانيون» مكان عميق شديد الانحدار، منطقة خطرة، ردّت على الإشارة اللاسلكية بالتجاوب وأعلمت المصرف، وارتدت بسرعة الزي الرسمي، قميص، جينز، سترة، وحذاء التسلق السميك، وركضت إلى الخارج تدير محرك سيارتها، بقية معداتها

تبقى دائماً في صندوق السيارة.

في مركز الانطلاق لم يكن هناك سوى سيارتين إلى جانب سيارة الشريف الرسمية. وتعرفت تالي على سيارة الجيب العائدة لجشوا شاريك، الذي يعمل عادة كقائد عمليات.. هذا عظيم.. جشوا الرجل الذي لا يكبر، النحيل، الذي يبدو وكأنه منحوت من خشب، كان له على الدوام الإحساس الطبيعي الذي يؤمن التأثير المهدىء، مهما كانت عملية الإنقاذ صعبة وكريهة.. أما سيارة الفورد البرتقالية فلا شك أنها للضحية.

بخروجها من السيارة، رأت تالي أن جشوا لم يكن هناك منذ مدة طويلة.. وكان هناك مساعد للشريف يشرح الأمور، وامرأة مذعورة مشعثة ترتدي ثياب تسلق الصخور، تحاول الردّ على الأسئلة لكنها كانت تواجه صعوبة في التماسك.

بإشارة من جشوا، انضمت تالي إليه تاركين المساعد يحاول تهدئة المرأة التي تقارب الهستيريا. وصلا الحافة المرتفعة.. وانبطحا على معدتيهما زاحفين إلى الأمام فوق الحافة، ليلقيا نظرة على الجدار العمودي للوادي.. استطاعا رؤية الجسم المسجّى هنا بما يكفي ليعرفا أنه لا يتحرك.

قال جشوا، وهما يقفان:

ـ لا يبدو لي الأمر جيداً.. وهارفي في فيغاس..

تأوهت تالي:

ـ أوه.. لا..!

هارفي ساندسون هو ميكانيكي سيارات في البلدة.. طوله مئة وتسعون سنتيمتراً ويزن تسعين كيلو غراماً من العضلات المتينة، وهو أكثر أعضاء الفريق خبرة في تسلق الصخور..

أكمل جشوا:

ـ أوه.. أجل.. حتى لو تمكن بقية الفريق من الوصول اليوم، فلا مجال لإخراج الرجل من الوادي قبل أن نتلقى تعزيزات.. إنهم في طريقهم إلى هنا الآن.. لكن من الأفضل أن ننزل إليه ونرى ما إذا كان.. حسناً.. ما نستطيع فعله له.

لم يتكلما لحظات.. بينما أخذ جشوا يدق مسامير حديدية في الأرض قرب الحافة.. ولفّت تالي بكل كفاءة ربطة حبال حولها، وربطت نهاياتها. وقال جشوا:

ـ سنستخدم التقنية الحديثة للهبوط المنفرد.. وبهذه الطريقة يبقى أحدنا هنا لينظم الأمور حين يصل الآخرون.

ونظر إليها وهو جاثٍ:

ـ وهذا يعني أنت.. أعيّنك نائب قائد في غيابي، وأنا في الأسفل..

قاطعته:

ـ دعني أنزل أنا.. أرجوك جوش.. لقد تدربت على الهبوط الجديد أكثر منك.

وهذا صحيح.. لكن كان كلاهما يعرف أن في الأمر أكثر من هذا.. وصادت لحظة صمت ثم اتخذ جشوا قراره.

ـ حسن جداً تالي.. لكن هناك في البحث والإنقاذ، أكثر من التدلّي من حبل على ارتفاع مئات الأقدام فوق الأرض.. يجب عليك أن تأخذي قسطك من المسؤولية.. فهذا مجهود فريق، وهذا ما يجعله ينجح.. ويجب أن تتعلمي هذا.

محرجة للتوبيخ، عضّت شفتها وأحكمت ربط قبعة الأمان حول ذقنها.. في كل أعمالها مع الفريق كانت تتهرب دائماً من أخذ القيادة واتخاذ القرارات. وهو محق بنصيحته هذه لها. فتخليص نفسها من الموت كان دائماً مسألة سهلة، على الأرجح سيقول أخصائي نفسي

إن هذا نوع من التكفير عن الذنب.. لكن تقبل المسؤولية عن أفعال الآخرين أمر آخر.. صحيح أن لا أحد يتمتع بمثل هذه المسؤولية، لكن الآخرين يتقبلون أدوارهم دون تذمر.

إلى أن ربطت لفافة إسعاف أولي، وخوذة إضافية، ومعدات عمل، إلى حزامها، كانت قد توصلت إلى قرار صغير لكن مهم.

- جوش.. أظنك على حق.. اسمع.. سأوجه وأشرف على عمل المتطوع التالي.. إذا كنت تظن أنني قادرة.

ردّ ضاحكاً:

- قادرة؟ بالطبع قادرة! وستكون طريقة رائعة لتعطي نفسك طعم المسؤولية.

أملت أن لا تندم على القرار. استعدت للنزول.. ورمى جشوا الحبل من فوق الحافة، وتفحص بقية الحبال.. ثم أخذت نفساً قوياً وأعطت إشارة بإصبعها إلى فوق، ورمت نفسها متأرجحة عن الحافة كما تدربت دائماً.

كانت الخطوة الأولى للانجراف من مكان مرتفع هي الأسوأ.. تلك اللحظة التي يتخلى فيها المرء عن الأمان الصلب، للأرض الجميلة تحت قدميه، ليتعلق متأرجحاً بحبال تبدو نحيلة، ووجهه نحو الصخر.. ولم تفعل تالي هذا مرة دون أن تتذكر نصيحة أبيها.. فقد قال، وهو خبير التسلق على الصخور، في أول مرة درّبها فيها على القفز من فوق حافة صغيرة وهي في سن الثانية عشرة:

- لا تنظري إلى الأسفل أبداً صغيرتي.. إذا كانت حبالك جيدة فأنت بأمان وكأنك في المنزل.. لكن رؤيتك أن لا شيء تحتك، كاف لأن يجعلك تفقدين أعصابك.

لم تنظر تالي تحتها.. وللحظات توقف القلب، تدلت طليقة في الهواء وكأنها العنكبوت المتعلق بحباله.. لكن ما إن أرجحت نفسها

بلطف على الجدار الصخري، ووضعت قدميها ثابتتين عليه، حتى تنفست بعمق واندفعت، تترك نفسها تهبط مئتي يارد إلى الأسفل، في سلسلة قفزات طويلة.

امتلأت ألماً لمنظر ساقي الرجل الملتويتين تحته.. واضح أنهما مكسورتان، لكن دون وجود دماء.. على الأقل ليست الإصابة معقدة.. لكنه سيمضي وقتاً طويلاً قبل أن يسير عليهما مجدداً.. وبالطبع، هو محظوظ لأنه حي.. هذا إذا كان حياً. لكن، لراحتها، حين وضعت إصبعين على جانب عنقه أحست بالنبض السريع الخفيف. لمستها جعلته يدير رأسه قليلاً ويتمتم بشيء غير مفهوم.. وعلى أمل أن يصله شيء، بدأت تتحدث إليه بكلمات مهدئة خفيفة وهي تعمل.

ثبتت قدميها في الأرض لمزيد من الأمان، هذا إذا كان يمكن للأقدام أن تكون آمنة في هذه المنطقة الضيقة الخطيرة من الصخور.. دست معدات الأمان حول ذراعيه وثبتتها، ثم وضعت الخوذة على رأسه.. لم يعجبها وضعهما أبداً.. الهوة كانت مليئة بالشقوق، على وشك أن تنهار وتتركهما معلقين في الحبال تجاه وجه الصخر العمودي.

فتحت جهاز الإرسال:

- إنقاذ واحد هنا.. هذه الهوة ليست ثابتة، إلى الآن كلانا بأمان.. الضحية فاقد الوعي، كسور في الساقين، ولا إصابات أخرى ظاهرة.

ارتفع صوت جشوا في الهواء الجاف:

- روجر.. علم.. أستطيع أن أرى شاحنة الإنقاذ قريبة وستكون معك مع الحمالة بعد عشر دقائق.. فريق "توكسون" في الطريق كذلك قادمون بأسرع ما يمكنهم.. انتهى.

عشر دقائق.. وماذا بعد؟ سيكون من الصعب جداً سحب حمالة إلى فوق بمثل حملها هذا..

سيضطرون إلى إنزاله إلى أسفل الوادي، وحمله من هناك.. لكن هذا أمر صعب أيضاً.. ربما أفضل شيء شبكة حبال عبر الوادي الضيّق.. ويمكن تركيزها عند تلك السلسلة الصخرية التي تدعى «ديدهورس بوينت» وجلب الحمالة إلى الجهة الأخرى.. مع ذلك كانت مسرورة أن القرار لن يكون لها.. لم يمض بعد خمس دقائق وعدت فيها جشوا ووعدت نفسها بأن تتحمل المزيد من المسؤولية.. وها هي الآن تتهرب من مجرد التفكير بها.

لم تكن واثقة أبداً كم يمكن للشاب الساكن كالأموات والشاحب مثلهم أن ينتظر.. تعرف أشياء عن كسور السيقان.. لكنها لا تعرف ماذا جرى له من الداخل.

هذه هي المشكلة مع فريق صغير مثل فريقهم. عشرة أعضاء فقط، ولا يستطيع الجميع الحضور في كل مهمة.. وغالباً ما يكون دورهم في مثل هذه المهمة الصعبة الصمود إلى أن يصل فريق «توكسون».. ما يحتاجون إليه حقاً هو متسلق حقيقي، وأفضل من هارفي.. شخص مثل ويلهام غلايمور..

للمرة الثانية خلال دقيقة أجفلت.. ويلهام غلايمور! ما الذي جعل مثل هذا المتعجرف المغيظ..

التوى الحبل المتدلي فوق الهوة في اللحظة التي انهمر فيها سيل من الحصى والتراب من فوق.. رفعت رأسها إلى فوق تحمي عينيها من أشعة الشمس.. عظيم! جزء من فريق توكسون لا بد أنه قد وصل.. أحدهم الآن يهبط لينضم إليها بكفاءة لا جهد فيها جعلتها تحسده.. لا شك أنه «ثورب رايلي» الرجل القصير الممتلىء.. هزت رأسها إعجاباً.. لو أنها تستطيع أن تتعلم التحرك بنصف

قدراته..

وهي تضيّق عينيها أمام الشمس الحارة قطبت. هذا ليس ثورب.. ليس مع هذا الجسم الرشيق، والخصر الرشيق المتحرك، وهاتين الساقين الرشيقتين القويتين.. حسناً.. كائناً من يكون فهي سعيدة برؤيته.. صاحت بعد أن وصل على بعد خمسين قدماً إلى الأسفل:

ـ هاي! أنا مسرورة..

لا يمكن هذا! غير معقول أن يكون ممكناً؟ عيناها متسعتان، فمها فاغر، غير مصدقة، لا شك أنها كانت تبدو كسمكة عالقة في الصنارة.. ولم تستطع أن تفعل سوى التحديق، بينما قفزة طويلة أنزلت الجسد المعلق، وبخفة الريشة إلى بعد خمسة ياردات منها.

كان توقف الحركة المفاجيء كافياً لأن يجفلها ويجعلها تتذكر أن تقفل فمها قبل أن يدير ويلهام غلايمور رأسه لينظر إليها.. وبدا عليه عدم التصديق نوعاً ما، وسألته

ـ ماذا.. ماذا تفعل هنا؟ كيف وصلت إلى هنا؟

ـ على الحبل.

نظر بسرعة إلى الرجل الفاقد الوعي، ثم أدار ظهره لها ليدق بضع مسامير في شقوق الصخر بقوة غاضبة.

لكن لماذا هو غاضب هكذا؟ هل هي غلطتها أنه قفز إلى استنتاج أنها لا تنفع لشيء سوى مسك اليد والتمتمة بكلمات التشجيع..؟ خطأها الوحيد أنها لم تصحح معلوماته ولا يمكنه أن يغضب لأجل هذا.. إلا إذا كان بالطبع فعلاً.. لا شك قادر على تحمل الشماتة دائماً، ولا يجد هذا مقبولاً!

لكن، مهما كان ما يشعر به، لم يوقفه عن العمل بكفاءة باردة متحفظة.. فبعد أن ثبّت المسامير الحديدية مد يده، لا يكاد ينظر

إليها، وقال آمراً:

- الجهاز!

بخضوع أعطته الجهاز.. ولو كان غير هذا المكان، وغير هذا الزمان، لضربته به.

- غلايمور هنا.. أرسلوا الحمالة وبعض الألواح المثبتة لكسور الساقين.. يبدو أن لدينا كسر في عظم الفخذ الأيمن وكسر في عظم الساق الأكبر لليسرى. وربما القصبة كذلك.. انتهى.

أعاد الجهاز إليها وأخذ يدرس التضاريس الأرضية حولهم.. ثم قال:

- لن يكون الأمر سهلاً.. وجه الصخور ناعم جداً.. وهناك هوة عند القمة.

أجابت:

- أعرف.. وفكرت أننا ربما..

- شبكة حبال عرضية، هذا ما نحتاجه.. ولن يكون من الصعب مدّ الشبكة فوق واد ضيق كهذا.. السؤال الوحيد، أين نركّز الشبكة هناك..؟

- فكرت أن مكاناً جيداً هو..

- هناك.. تلك النقطة التي فيها الغرانيت الزهري.

تمتمت بلهجة جازمة: «ديد هورس بوينت».

- مهما يكن اسمها.. ها قد أتت الحمّالة.. ما إن نربط كسور الرجل ونضعه فيها، سأنزل إلى أسفل الوادي وأقيس المسافة إلى تلك النقطة، وسنخرجه في وقت قصير.

مد يده يمسك الحمّالة «الالمنيوم» ومواد الإغاثة الأولية، وهو ينظر من فوق كتفه إليها.

- أتعلمين.. كنت أظن أنك حتى أنت فكرت بهذا.

صكّت على أسنانها وتحمّلت الإهانة، وعملت إلى جانبه في ربط الجبائر فيما بقي الشاب فاقد الوعي.

حين عاد ويلهام للتأرجح نزولاً إلى الوادي.. كادت تالي تختنق فزعاً لسرعته وخبرته.. رائع معرفة أن هذه المنطقة هي لعبة أطفال بالنسبة لرجل تسلق أعلى المرتفعات في العالم، لكن الأروع أن يشاهده المرء وهو يتحرك.. كيف يمكنه امتلاك مثل هذا المهارة ولا يرغب في استخدامها بطريقة منتجة منظمة؟.

كان إعجازاً أن يصيح المصاب على أرض كيواكانيون حين وصل فريق توكسون.. وكل ما بقي عليهم حمله إلى المكان الذي تتسع فيه الجبال بما يكفي للسماح للهليكوبتر بأن تحط لتأخذه.. وهذا ما تم بسرعة.

كالعادة في نهاية كل مهمة ناجحة، امتلأ الجو بالحماس والفرح، وتعالى الضحك والتهنئة حين جاءت المخابرة من الفريق الطبي في الهليكوبتر بأن المصاب بخير، دون آثار لإصابات في الرأس أو الداخل.. وصاح سائق شاحنة الإنقاذ في فريق توكسون، وهو يدير مفتاح المحرك:

- حسناً.. أرى أنكم لم تعودوا بحاجة إلينا.. ليس مع وجود «الرجل العظيم» بنفسه في فريقكم.

قال جشوا وهو يرمق بنظرة إعجاب ويلهام:

- سيد غلايمور يمكنني أن أقول لك: في أي وقت تتعب من حياتك مع الخطر.. أعتقد أننا سنجد لك مكاناً بيننا.

لم تكن تالي تنظر إليهما، لكن قشعريرة باردة وصلت إلى عنقها قالت لها ان ويلهام ينظر إليها. دون أن تستطيع منع نفسها، رفعت نظرها عن الحبل الذي كانت تلفه.

وكان ينظر إليها فعلاً.. بتعبير لا يمكن قراءته في عينيه، وفي

فمه المشدود.. وسرت قشعريرة في كل جسدها، ولم تستطع كبح الارتجاف.. ثم أدار عينيه نحو جشوا وقال بهدوء:

ـ ما رأيك الآن؟

سأل جشوا:

ـ ماذا تعني بالآن؟

ـ ما رأيك بأن تجد لي الآن مكاناً في فريقكم؟

جمدت تالي لحظات، ثم بدأ قلبها يخفق بقوة مضاعفة. ما هي اللعبة التي يلعبها معهم؟ ماذا يفعل هنا أساساً؟

بدا جشوا مذهولاً مثلها تماماً.. وقال:

ـ كم أتمنى لو تكون جاداً.

ردّ عليه ويلهام بخشونة:

ـ لم أكن في حياتي أكثر جدية.. أم أنني لست على مستوى المؤهلات المطلوبة؟

أكمل جشوا شكوكه، ورد بنفس الخشونة:

ـ كل شيء، ما عدا السكن في الجوار.

ـ هذه ليست مشكلة.. لقد ألزمت نفسي فعلاً بالإقامة هنا لبعض الوقت.

ـ إذن.. هناك إمكانية، وفترة تدريب.

هزّ ويلهام كتفيه، يشير إلى أجهزة الاتصال والعلاج التي كان الفريق يوضبها في مكانها:

ـ لست مستغرباً.. أستطيع أن أرى أن في أعمال الإنقاذ أكثر من تسلق الصخور.

رددت تالي في نفسها: من الأفضل أن تراهن على هذا أيها السيد.. فهناك الخروج من فراش دافىء والخوض في الوحل المتجمد في الثالثة صباحاً.. و..

قال ويلهام:

ـ متى أبدأ إذن؟

إن لم تقتنع تالي فإن جشوا اقتنع، وتجمد وجهه في ضحكة عريضة.

ـ في أسرع وقت ممكن.. هناك تفاصيل كثيرة تعلمك إياها تالي.

هزت تالي رأسها لنفسها في موافقة متجهمة: الأفضل لك أن تصدق.. هناك تفاصيل أكثر مما.. ماذا قال جشوا؟ رفعت رأسها عن الحبال بذعر.. وصاحت: أنا؟

قال جشوا بدهشة:

ـ طبعاً.. لقد عرضت علي هذا الصباح أن تتولّي أمر المتدرب التالي.. ألا تذكرين؟

أطلقت تالي آهة إحباط ونظرت بلهفة إلى ويلهام، واجتاحتها موجة ذعر مفاجئة لبريق التسلية في عينيه الخضراوين الباردتين.. فكرة أن تدفع دفعاً إلى الاتصال به، حتى ولو لبضعة أيام التي سيستغرقها ليسأم هذه التسلية السخيفة أرسلت البرد يسري في جسدها مجدداً.. فهذا الأمر يحمل من الخطورة أكثر مما يحمله الديناميت.

مهما يكن، لن تستطيع التراجع عن وعدها لجشوا.. رددت متلعثمة:

ـ أجـ.. أجل.. بالطبع.. أذكر.

ابتسم جشوا لهما معاً:

ـ عظيم.. سوي الأمر إذن.

وانسحب يساعد في توضيب المعدات.

ضيقت تالي عينيها الزرقاوين الرماديتين العاصفتين، وأخفضت

صوتها كي لا يسمعها سوى ويلهام.

ـ كيف تجرؤ على أن تكون دون إحساس هكذا؟ ما الذي تفعله؟ أتحاول استغلال الريفيين السذج؟ جشوا شاريك أنبل رجل عرفته يوماً.. يعادل دزينة من رجال أمثالك! متجره للخردوات الحديدية مقفل الآن، لأن غريباً لم يسمع باسمه يوماً وقع في مأزق.. وأنت تستغله.. وكأنك فعلاً ستعطي من وقتك.. أوه.. ما الفائدة من الكلام معك؟

أصغى ويلهام إلى كلامها واضعاً يديه على خصره النحيل دون أي ردّ فعل سوى ابتسامة على وجهه تسلب اللب. وسأل ضاحكاً:

ـ هل نفد منك الكلام أم نفدت الأنفاس.

صاحت وهي تكاد تنفجر من الغضب الذي تكبته:

ـ بل نفدت الكلمات المؤدبة.

ـ حسناً.. قبل أن تجدي الكلمات البذيئة المناسبة.. هل أستطيع تمرير كلمة، بل كلمتين؟ أنا.. جاد.. أريد الانضمام فعلاً إلى الفريق تالي.

ـ لكن.. لكن.. هذا أمر سخيف. لقد قرأت الكثير عنك.. ولا يمكن أن تعطيني انطباعاً بالاهتمام بشيء، أو عمل، أو.. امرأة لأكثر من أسبوع في حياتك!

قال بنعومة:

ـ حسن جداً.. لا يجب أن تصدقي كل شيء تقرأينه في الصحف. أما حياتي العاطفية.. أكان هذا تحدياً شخصياً؟ لو أنه هكذا...

طافت عيناه عليها بصراحة، تتفحصانها، وأكمل ببطء:

ـ لو أن الأمر هكذا.. قد أقبل التحدي.. وقد يتبين لي أنك رفيقة مسلية.. وهذا أقصى ما أستطيع أن أقوله عن معظم النساء.

صاحت بوجه أحمر كلون الشمندر:

ـ هذا الحديث يصبح سخافة! ما الذي يجعلك تظن..؟ لماذا نحن..؟ كيف يمكنك أن..؟

توقفت فجأة غاضبة من نفسها أكثر من غضبها منه.

ـ أنت تعرف أنني لا أعني أشياء كهذه.. وليس لي أي اهتمام على الإطلاق بحياتك العاطفية. ولا يهمني أبداً.. كنت فقط أعطي مثلاً.

بابتسامة مثيرة جعلتها تتوتر أكثر، قال:

ـ أوه هوه.. وأنت دائماً تحمرين حين تعطين الأمثال؟

شدت نفسها لتقف منتصبة قدر استطاعتها، وقالت ببرود:

ـ هذا الحديث لن يوصلنا إلى أي مكان.. لا أصدق ولو لدقيقة واحدة أنك جاد بالنسبة للانضمام إلى الفريق. لكنني سأفعل غداً يوم السبت ما يتوقعه جشوا مني.. ستبدأ إذن في الغد في الثامنة تماماً.. في كاراج الشريف. والآن أعذرني، يجب أن أساعد في توضيب العدة.. سأذهب إلى العمل.

استدارت على عقبيها مبتعدة، ثم عادت تلتفت بحدة:

ـ الثامنة صباحاً سيد غلابمور.. هذا إذا ظننت نفسك قادراً على الخروج من فراشك في وقت مبكر هكذا!

ـ ما من مشكلة.. لا شيء يبقيني فيه هذه الأيام.

انسحبت وتفكيرها موجة متلاطمة من الأفكار والمشاعر المتشابكة المشوشة، بعضها إجرامي، البعض مرتبك، والبعض لا يليق بسيدة محترمة أبداً.

* * *

٥ ـ مشاعر بلا معنى

أقبل اليوم التالي صافياً، حتى أن الشمس بحلول الساعة الثامنة بدأت تحرق برد ليل الصحراء.. وكان يوماً مناسباً جداً لما تفكر به تالي لو أن ويلهام ظهر فعلاً.

حين دخلت بسيارتها فسحة توقيف السيارات أمام كاراج الشريف، لم تستغرب لعدم رؤية أثر لسيارة بورش بيضاء. لكن النفس الطويل الصاخب الذي أطلقته أذهلها.. فهل هي تنهيدة ارتياح أم خيبة أمل؟ قبل أن تستطيع الإجابة بصدق، كانت سيارة لامعة، بيضاء تستدير في المنعطف خلفها، لتظهر في المرآة وهي تتوقف بنعومة.

أخذ قلبها يخفق وهي تحضر نفسها.. شدت المكبح اليدوي ونزلت، لتقول ببرود قدر استطاعتها:

ـ أنا مسرورة لحضورك في الوقت المحدد.. لدينا أشياء كثيرة نقوم بها.

ابتسم ويلهام بتكاسل:

ـ من الجيد إذن أنني أرتدي بنطلون جينز.. يبدو أننا مقدمان على عمل قذر.

ردت بخشونة:

ـ أنت من ستواجه العمل القذر.. أنا المشرفة، أتذكر؟

ضحك: أجل سيدتي.

ورفع يده إلى صدغه بتحية عسكرية.

اضحك كما تشاء أيها المتأنق.. فلسوف تقوم بعمل مفيد هذا الصباح، ولأول مرة في حياتك.. وسارا معاً نحو الكاراج من مدخل جانبي.

سأل بمرح:

ـ أيها الرئيس؟ بماذا نبدأ أنا بارع جداً في أحدث وسائل الإسعاف الأولي.. لكن، أظنني بحاجة إلى التعرف على بعض أجهزة الإنقاذ، وبعد تفاصيل عمل اللاسلكي، أستطيع أن أتحمل..

ـ سنبدأ بغسل شاحنة الإنقاذ.

ـ غسل الـ.. الـ..

ـ الشاحنة..

وعضت شفتها لتمنع نفسها من الانفجار بالضحك لتعابير وجهه، وأكملت:

ـ ستجد الدلو ومواد التنظيف قرب المغسلة.

دون انتظار رده صعدت إلى الشاحنة الفان وقادتها إلى الفسحة المرصوفة، مسرورة للطريقة التي تدبرت بها الأمور حتى الآن.. لكنها كانت ترتجف لمعرفتها أنها تقف على حافة هاوية خطيرة.. ودون حبال الأمان!

أوقفت الشاحنة في بقعة مشمسة قرب خرطوم المياه، وأخذت ترشها رشاً أولياً لتنزع عنها غبار اليوم الفائت حين خرج ويلهام متجهماً من الكاراج، مسلحاً بجردلين والاسفنجة.

سأل بنظرة سوداوية:

ـ هل هذا تدريب معتمد؟ أم أنها طريقة ناتالي بيلارد في المزاح.

أقفلت تالي المياه عن الخرطوم.. وأخذت أحد الجردلين منه،

ووضعته قرب الإطار الخلفي.

ـ أكره أن أخيب ظنك، لكن هناك الكثير من العمل المزعج في عمل الإنقاذ. في الواقع هناك الكثير من المهمات المملة، وآسفة لهذا.

ردّ ساخراً: بالتأكيد آسفة.

ظنته سيتوقف وينسحب عائداً إلى سيارته. لكنه بدلاً من ذلك رمى بالإسفنجة في المياه الساخنة المليئة بالصابون، وبدأ العمل بنشاط.. شد فمه بحزم، لكن كانت السخرية في صوته وهو يتكلم:

ـ لا زلت تعتقدين أنني دون المستوى.. أليس كذلك؟

ـ أجل.. لكن طالما أنك تريد أن تبقى متمتعاً بلعبتك.. أستطيع على الأقل الاستفادة من عمل مفيد منك. هناك مواد طبية بحاجة إلى إعادتها مكانها.. حبال تفحص ويعاد لفّها..

كان راكعاً لا يعطيها أي اهتمام، بدعك خلف الإطار. واستغلت الفرصة لتراقب كيف ترتاح عضلات كتفيه تحت قميصه الأخضر الصوفي.. ويلهام فلايمور، دون أي مجال للإنكار، رجل جذاب، جذاب لعين.. من الناحية الشكلية على أي حال. أما من النواحي الأخرى فهو مثير للغيظ تماماً.

قالت تدير عينيها إلى الشاحنة:

ـ على فكرة.. كيف تورطت بعملية الإنقاذ يوم أمس؟

تمتم ساخطاً:

ـ حظي السيء.. بدأت أتذكر.. كنت أتناول الفطور، حين تعرف عليّ أحد أفراد فريقكم، أظن أن اسمه نوم.

ـ نوم تالمان؟ الحداثي في فندق «كوبر كنغ»..

ـ إنه هو.. كان في طريقه إلى الخارج وقال إن فريقكم ينقصه أفضل متسلق، وهل يمكن أن أساعدكم؟

ـ أتعني أنك أمضيت الليل في الفندق.. وأنا..

وصمتت، فليس من المجدي أبداً أن تتركه يرى كم كانت قلقة عليه.

لكن لهجة صوتها جعلته يرفع رأسه عن عمله إليها، نظرت إليه، شعره يتدلى على جبهته كالطفل، كان كما رأته أول مرة. أشاحت بوجهها مسرعة مرة أخرى.. تحس بالانزعاج لتلك المشاعر التي يمكنه إثارتها فيها دون أن يحاول شيئاً أو يهتم.. قال يتابع سوء فهم تعابيرها:

ـ لا توهمي نفسك.. لقد حجزت غرفة بعد الظهر قبل أن أتكلم معك في المصرف.. لذا يمكن أن تطمئني أن لا شأن لك.

جلس وابتسامة نصف خجولة على وجهه:

ـ كما أنني لا أوهم نفسي بأن نصيحتي الصغيرة حول البطانية المبللة، أي إفساد سعادة الآخرين، هي التي دفعتك إلى الجرأة فوق ذلك الجرف الضيق.. إذ لا يمكن تعلم تسلق الصخور هكذا في ليلة واحدة.

أراح ساعديه على فخذيه، ورفع حاجبه ينظر إليها بحيرة.. وسأل:

ـ لماذا تركتني أعتقد هذا على أي حال؟

هزت كتفيها ودست اسفنجة في دلوها، وبدأت تدعك جانب الشاحنة بالماء والصابون.. ثم قالت بعد لحظات:

ـ أعتقد أنني فعلت هذا لأن ما قلته، بطريقة ما، صحيح. أنا فعلاً كالبطانية المبللة.

أبعدت خصلة الشعر البنية الشاحبة عن عينيها بظاهر يدها:

ـ أنا لا أحب رؤية الناس يخاطرون بأرواحهم.. إلا لهدف يستحق العناء.

ـ مثل إنقاذ أرواح الآخرين؟

ـ أجل..

ـ ربما الحق معك هنا.

وقف يمدد جسمه الطويل، وأخذ ينتظيف الدفاع الأمامي.

ـ يجب أن أعترف، أنني أحسست بشعور غريب لرؤية وجه تلك المرأة حين قال الفريق الطبي إن صديقها سيكون على ما يرام.

ـ ألهذا قررت الانضمام إلينا؟

ـ لا.. ونعم.. ويجب أن تدخلي في رأسك الصغير الجميل ذي ذيل الحصان، وعلى الفور، أنني جاد.

ردّت بحدّة:

ـ لكنك لن تصمد فترة التدريب.

حاولت جهدها اتقاء خيبة أملها أمام نبرة صوته الفولاذية الواثقة.. ويلهام غلايمور في الواقع يحرك مشاعرها كثيراً.. والتدريب سيجمعهما معاً لأيام.. بالنسبة لها على الأقل، تعرف أن الإنجذاب قد يكون الخطوة الأولى والأهم إلى الحب.. وإذا لم تكن حذرة قد تقع فجأة.. وهذا ما لم تكن تريده. لأن فكرة حب غير مطلوب الآن، في الوقت الذي بدأت تتخلص فيه من حب ميت يبدو توقيته سيئاً.

قال وعضلات وجهه تتوتر:

ـ إذن من الأفضل لي أن أتركك الآن. أهذا ما سيعجبك؟

ـ بالتأكيد هذا سيوفر علينا الكثير من المتاعب.

ضاقت عيناه بلمعان ساخر.

ـ أتريدينني أن أقول لك ما الذي يزعجك؟ إذا سألتني فالأمر..

ـ لم أسألك.. ولا يهمني هذا أبداً.

ـ هذا واضح.. أنت خائفة من أن تحذيني إليّ.. أليس كذلك؟

أنت قلقة من وجودنا معاً.

شهقت.. هل هي شفافة إلى هذا الحد؟

ـ حقاً.. هذا.. من أسوأ السخافات.. التي تنضح غروراً..

ضحك متذكراً:

ـ أتظنين أنني لم ألاحظ ما حدث لك ساعة عانقتك تلك الليلة؟ لقد ذبت بين ذراعي.

صاحت، وحاولت الضحك دون إقناع:

ـ ذبت؟ وبين..

ضحك:

ـ بين ذراعي.. لقد أصبت، أليس كذلك؟

أخذت نفساً عميقاً لتسيطر على نفسها بشدة:

ـ أوهامك هذه مسلية جداً.. لكن عملنا الحالي هو تنظيف الشاحنة.. لذا فلنكمل عملنا.

ورمت الإسفنجة في الدلو بغضب متجدد.

لكن ويلهام لم يكن غاضباً، فقد رمى إسفنجته في دلوه واستند إلى الشاحنة، ذراعاه مطويان، ساقاه ملفوفتان واحدة فوق الأخرى.. وكان لا يزال يضحك:

ـ ألهذا موهت آثارك.. ألهذا؟

وتلاشت ضحكته.

ـ الرد على هذا هو مطلقاً، وبكل تأكيد..

عادت ابتسامته، وقاطعها:

ـ أوه هووه! هذا ما ظننته.

رمت اسفنجتها في الدلو مرة أخرى.. ورفعت ذقنها بعدوانية:

ـ يبدو لي بكل تأكيد أنك تأخذ أشياء كثيرة كأمور مسلّم بها.. دعني إذن أؤكد لك، يمكنني أن أمضي أياماً بل أسابيع، برفقتك دون

أن يرف لي جفن.. إلاّ سخطاً.. بالطبع!

وفكرت أن ما قالته رائع.. لكن ويلهام قلّب رأسه إلى الوراء ضاحكاً، ثم قال بجفاء:

ـ أتعلمين.. أميل إلى أخذ تصريح كهذا كتحد شخصي لي.

فتحت فمها لترد، لكنه تابع وكأنه يفكر:

ـ المستقبل يصبح أكثر إثارة للاهتمام مع مرور الوقت.. ويبدو كأننا معاً لدينا شيء نريد إثباته.

انحنى ببطء يلتقط دلوه وبدأ يصفّر بمرح.. وهو يستدير نحو مقدمة الشاحنة.

فكرت تالي أن تفرغ دلوها على ظهره المبتعد، لكنها تعرف أن هذا سيزيد الأمر سوءاً.. فهي لم تكسب شيئاً بعد هذا الصباح، ولا جدوى من البدء في مشكلة جديدة. من المفروض أن تكون أكثر مكراً وذكاءً مما كانت عليه حتى الآن.

كان الوقت ظهراً حين انتهيا من إعادة توضيب المعدات وأعلنت تالي انتهاء العمل لهذا اليوم.. ولم يخاطبا بعضهما خلال ثلاث ساعات ما عدا تعليقات حول معدات الإسعاف الأولي، الحبال، وكتابين أعطتهما له ليقرأهما.

أخيراً سألها دون تركز وهما يتجهان إلى سيارتيهما:

ـ أمشغولة هذه الليلة؟

أيمكن أن يكون جاداً؟ تعرف أن أفضل ما تقول هو كلمة نعم بسيطة، لكنها لم تستطع سوى التجاوب مع التحدي في صوته:

ـ ولماذا؟ كي تجرب نظريتك؟

ضحك:

ـ لقد خطرت لي الفكرة.. لكن الواقع لا. لقد ذكرتك أمام مارك وتيا ميلورد ليلة أمس، ويرغبان في مقابلتك. طلبا مني أن آتي

بك إلى مزرعتهما للعشاء، إذا تمكنت من هذا.

فتح لها بابها ثم أراح مرفقيه عليه.. وقال:

ـ بالطبع إذا كنت تخشين أن تكوني معي فلن تفكري في المجيء.. أترغبين في بعض الوقت للتفكير بعذر؟ لست مستعجلاً.

أحست كأنها حيوان في فخ، وقالت:

ـ آسفة لخيبة أملك، لكنني لست خائفة أبداً من أن أكون معك.. ولن أفكر في أن أبتدع عذراً.. الواقع أنني أحب المزارع، وأرغب في زيارة مزرعة ميلورد.

ردّ بشكل طبيعي:

ـ عظيم.. سأمر لآخذك في الخامسة.

لا وحياتك.. لن تفعل! لن تعرض نفسها للقاء حميم معه في رحلة لستين ميلاً.. وقالت بنعومة:

ـ لا حاجة لأن تأتي لتأخذني.. لديّ أشياء أريد الاهتمام بها في تلك الناحية بعد الظهر.. متى تريدني أن أكون هناك؟

* * *

لم ينفعها ارتداء أبسط الثياب.. فقررت أن تبدو بأفضل أحوالها.. سيعطيها هذا بعض الثقة بالنفس.. وتعرف أنها ستحتاج إلى أكبر قدر منها.

بدأت بحمام ساخن، شامبو لشعرها، ثم العناية بأظافرها.. ثم جففت شعرها الكثيف، وهو أفضل ما فيها، ومشطته بموجات طويلة منفلتة استلقت على كتفيها.. لكن الماكياج كان خفيفاً، ما عدا أحمر الشفاه المشمشي الذي وضعته دون أن تدع نفسها تعرف السبب.. لكنها متأكدة أن هذا لم يكن لأعضاء أسرة ميلورد.

انتقاء الثياب كان سهلاً.. فلديها فقط ثوب واحد أنيق، بذلة سماوية اللون، باقتها الحادة إلى الأسفل، تلفّ جسدها. كانت أنيقة

دون أن تكون رسمية.. بل الواقع أنها مناسبة تماماً لزيارة عادية إلى الجنوب الغربي تقرب من الزيارات الاجتماعية. لحسن الحظ لم تحتج سوى إلى قلادة هندية بسلسلة فضية وأحجار تركوازية شاحبة، وقرطين مماثلين.

فكرت مترددة أتحتذي حذاءً عالي الكعب، أم منخفضاً.. ثم قررت العالي.. ثلاثة إنشات أضيفت إلى طولها البالغ مئة وثلاثة وسبعين سنتمتراً، ستكون تقريباً بنفس مستوى ويلهام غلايمور.. فليجرؤ على محاولة إرهابها الليلة!

مزرعة ميلورد «لا بركريك رانش» كانت أكثر جمالاً مما تصورته تالي، وما إن أوقفت سيارتها البويك القديمة على الطريق الداخلية الترابية، حتى جلست في مقعدها تنظر إلى ما حولها من جمال الطبيعة.. كانت مباني المزرعة تقبع على الأقدام الشرقية لتلال «تشيريكاهوا» وتنتشر بين أشجار الوادي من سنديان وصنوبر وعرعر.. المنزل الرئيسي كان كبيراً متسعاً مدهوناً بالأبيض، له سقوف طويلة منحدرة وشرفات واسعة.. من وراءه اسطبلان منفصلان فيهما عدة جياد تأكل التبن، وعلى مسافة قصيرة بضع أكواخ مرتبة جيداً.

ولولا بركة السباحة المملاقة التي تقع قرب الأكواخ، لكانت وكأنك تنظر إلى مشهد يعود إلى مئة عام، ولكي تتكامل الصورة الريفية، كان جدول الماء يجري في محاذاة المكان، وكأنه الكنز الحقيقي في هذه الأرض الجافة، حيث أن الجداول والأنهر عادة هي موسمية.

إنها الجنة الكاملة.. حين كانت تالي طفلة كانت تحلم بالعيش في مكان كهذا.. ولا زالت تحلم.. لكنها الآن كبيرة بما يكفي لتعترف بأنه مجرد حلم.. آه.. ما أجمل أن تكون هنا ولو لأمسية

واحدة، إنها ممتنة لويلهام بهذا على الأقل. أخذت نفساً عميقاً من الهواء الملي، بأريج الصنوبر والعرعر، واتجهت إلى الباب الأمامي.

كان مارك ميلورد مفاجأة لها. كانت تعرف أنه صديق قديم لويلهام، وأنه يطير بالطائرات الشراعية الخفيفة للهو والمرح، وأنه انتقل إلى هنا من الشرق منذ بضع سنوات.. توقعت شخصاً يشبه ويلهام نفسه: ناعم، أنيق، ومديني، وجذاب بشكل ماكر! لكن الرجل المثقف الوقور، الضعيف البنية، الذي فتح لها الباب كان عكس ويلهام تماماً.. بنظارتيه، وشعره الأحمر المجعد بشدة، ولونه الشاحب، بدا وكأنه كان يمضي كل حياته في مكتبة جامعة للأبحاث.

وواضح أنها لم تكن كما يتوقعه كذلك.

قال مسمراً بالباب، وبريق المرح ينير عينيه الزرقاوين اللطيفتين:

ـ لا! «أنت» تالي بيلارد؟ أوه.. يا إلهي!

ابتسمت معجبة به على الفور:

ـ أفهم من هذا أنني لست كما توقعتني.

ابتسم بدوره:

ـ ليس تماماً، هو قول أقل من الحقيقة.. أظن أن ويلهام قال شيئاً عن ذيل الحصان، والثياب الرثة.. لكنه اعترف بأنك لست سيئة المظهر جداً، حين ينظر إليك المرء من زاوية صحيحة.

ضحكت تالي ولم تستطع سوى الرد على ودّ الرجل المنفتح.

ـ أتظنه سيخيب أمله لأنني لم أكن عند حسن ظنه؟ أو عليّ أن أقول «سوء ظنه»؟

ـ لا شكّ أنني سأتمتع جداً لحظة يراك.. أدخلي إلى المطبخ تالي.. ويلهام هناك يساعد تيا.. زوجتي.

حصل الاثنان على متعتهما بالنظرة التي طغت على وجه ويلهام

لرؤيته تالي.

قال متلعثماً:

ـ آه.. مرحباً.. آه.. تيا هذه.. أوه.. تالي.

كانت تيا ميلورد أطول من زوجها ببضع إنشات، امرأة ممتلئة الجسم نشيطة كثيرة الكلام بصوت عميق أجش وخطوط الضحك حول عينيها.. كانت تشع بذات التعابير الودية مثل زوجها.. ما هي إلا دقائق حتى كانت تالي تتساءل من أين حصل هؤلاء الأثرياء على سمعتهم المتكبرة.. يمكنها أن تطلق على ويلهام غلايمور الكثير من النعوت لكن التكبر ليس واحداً منها.. ويبدو أن أصدقاءه من نفس الطينة.

قال مارك:

ـ خذي مقعداً خشبياً واجلسي عليه تالي.. ودعينا نتفرج عليهما يعملان.. نحن نشرب عصير البرتقال المثلج.. لكن لدي مرطبات مثلجة أخرى، مثل الجنجر الأخضر الذي يشبه لون لوبك الرائع.

نظر شزراً إلى ويلهام، وتمكنت تالي أن تفهم من رسالته ما أسعدها.. ثياب رثة.. هه!

ـ العصير سيكون رائعاً.. شكراً.

الأمور تجري على ما يرام حتى الآن، لكنها لن تخاطر.. وستكتفي بعصير البرتقال، فمن يدري ما هو الجنجر الأخضر؟

كانت تيا مشغولة بأربع سمكات تروبت طازجة. وهي تراقبها تحشو كل سمكة بالأعشاب المطيبة وتغطيها بأوراق خضار طازجة، عرفت تالي أن الطبخ الممتاز شغل شاغل يومي لمطبخ آل ميلورد.. كان المطبخ حلماً كاملاً.. اتساعه يبلغ حجم شقة تالي كلها، وقد ملىء بالمعدات الحديثة اللماعة، بما فيها موقد الشواء تحت مدخنة، مثبت فوق رفّ من بلاط إسباني أصفر وأزرق، في وسطه كومة من

الفحم تنتظر الإشعال.

قالت تالي:

ـ أحب أن أساعد.. فهلاً سمحت لي؟

ابتسمت تيا:

ـ يمكننا الاستفادة من المساعدة.. مارك أحضر تلك المريلة الكبيرة من الدرج الأسفل لتالي كي لا تلطخ هذه البدلة الرائعة.. وأبعد مخاليك عن حبوب الصنوبر.

قال مارك محتجاً كالملائكة:

ـ أتكلمينني أنا..؟ أقلت صنوبر؟

ـ أجل.. صنوبر.. أظن أن من الأفضل أن تجعل تالي تحضر السلطة بالسبانخ والصنوبر فوراً.. هذا إذا أردنا أن يبقى لنا شيئاً منها.

رد مارك متكبراً:

ـ حسن جداً، يبدو أنك لا تثقين بي.

ـ لا أثق بك لحظة واحدة.. بإمكانك شك شرائح اللحم.. فأنا أعتقد أن اللحم هو الشيء الآمن منك.

توجهت إلى تالي:

ـ أمر مقرف.. إنه يأكل ما يريد ولا يزداد وزنه ذرة واحدة.. بينما أنا.. لو سألتني.. الحياة غير منصفة أبداً.

رفعت يديها وقد انتهت من تحضير السمك ثم أكملت:

ـ إذا مدّ يده إلى الصنوبر أضربه بالملعقة بقوة، وحيث يتألم.

ارتفعت عينا مارك إلى الأعلى:

ـ يا إلهي! المرأة جبارة متسلطة.. لماذا أتحملها؟ ستكون زوجتي التالية وديعة كالنعجة.. وأظنني سأجرب الشقراء هذه المرة.. أجل سأجرب الشقراء بكل تأكيد.

ـ تالي، هلا ضربته بالملعقة على أي حال؟

ابتسمت تالي فقد كان من المستحيل أن لا تلاحظ كم يحبان بعضهما.. شيء ما قال لها بوضوح أنهما بقدر عدم تجانسهما الجسدي، لا مشكلة أبداً في توافقهما. ولم تستطع إلاّ أن تحسدهما على كل هذا الدفء والحب.. فهل سيكون لها مثل ما لهما.. في المستقبل؟

لا شعورياً استدارت عيناها إلى ويلهام.. لكن حين قابلهما مباشرة بعينيه المتعجرفتين الخضراوين وشبح ابتسامة، أنزلت عينيها بسرعة إلى أوراق السبانخ التي تقطعها.. قد لا تتمكن من السيطرة على أعصابها حين يكون موجوداً، لكنها ستتمكن من السيطرة على حياتها، وويلهام غلايمور بقدر ما هو جذاب، ليس صالحاً لعلاقة على مدى طويل.

إلى أن جلس الجميع لتناول شرائح اللحم المشوي على الفحم وسمك الترويت، كان هناك الكثير من الكلام، بحيث أنها أحست بالارتياح مع العائلة وكأنهما صديقين قديمين، لكن هذا ما لم يكن إحساسها مع ويلهام طبعاً.. فكيف لها أن تكون مرتاحة مع رجل يجعل ركبتيها تصطكان وتسري القشعريرة في كل جسدها لمجرد أن يمد يده إلى قربها ليمسك ملعقة خشبية طويلة اليد؟

انتهى الطعام وتحلق الجميع أمام المدفئة الحجرية المرتفعة حتى السقف في غرفة الجلوس، ودار الحديث حول الأعمال.. كان مارك مهندساً كما عرفت تالي لدهشتها، فقد قدرت بالرغم من مظهره المثقف أنه يحيا حياة المغامرة والمرح مثل ويلهام.. وتبيّن لها كذلك أن تيا ترسم صوراً توضيحية لكتب علمية.

وتدخل ويلهام:

ـ إنها الأفضل.. تيا، يجب أن تدعي تالي ترى تلك الرسومات

النباتية التي تعملين عليها لصالح «برنتيس هول».

قالت تالي صادقة:

ـ سأحب أن أراها.

رد مارك الضائع في مقعد منتفخ:

ـ سآتيكما بها بعد أن نأخذ الحلوى والقهوة. أعتقد أن لها قيمة مسلية.

ضحكت تيا:

ـ أمر رائع أن يكون لي زوج داعم.. شكراً لك على أي حال سيد ميلورد.

سوّت وسائد مقعدها واستقرت إلى الخلف تتنهد:

ـ على أي حال الرسم التوضيحي أصبح الآن عملاً عظيماً بالنسبة لي، لأنني أستطيع القيام به.. صحيح أنه لا يعطيني أشياء كثيرة، لكنه يوفر لي فرصة للخروج ورؤية العالم.

تجاهل مارك الجملة الأخيرة، وقال:

ـ أما أنا فأعمل في الهندسة المدنية.. وهذا عادة ما يدفع المهندس إلى مواقع العمل للتفتيش وللمراقبة، وقد أبقى في الميدان لأسبوع أو اثنين أحياناً.

سألت تيا:

ـ وماذا عنك تالي؟

ـ أعمل في مصرف.. في أمانة الصندوق.. وأخشى أن يكون هذا عملاً روتينياً مملاً أحياناً.

ردّت تيا وهي ترسل نظرة استياء إلى ويلهام:

ـ أتصور أن لديك ما يكفي من الإثارة، خاصة وأنت منشغلة في انتشال طيارين متهورين من بين صخور تشيريكاهوا.

قال ويلهام متشدقاً بخشونة، وهو يستدير عن المدفأة حيث كان

يعيد ترتيب الحطب المشتعل بالمقبض الطويل.

ـ لدي انطباع بأن تيا لن تدعني أعيش مرتاحاً مع هذا أبداً.

بصعوبة دفع مارك نفسه فوق الكرسي الناعم الطري، ونظر إلى ويلهام من فوق ركبتيه.

ـ لا تدعها تخدعك.. لا يمكن أن تكون أكثر سعادة لتدميرك الكامل لطائرتي الشراعية المسكينة.. مع أنها تدعي الأسى على الكدمات التي نلتها وأنت تفعل هذا.

ضحكت تيا:

ـ أنت لم تقل شيئاً لم يعرفه بعد. آخر شيء أحتاج إليه أن يطير زوجي في الأجواء، مربوطاً إلى شيء مصنوع من عيدان أسنان ومناديل من ورق.

رمى مارك نفسه على المقعد مجدداً متنهداً، يقول ساخطاً:

ـ عيدان أسنان ومناديل من ورق.. أمر مذهل هذا الجهل الذي أنا مضطر لتحمله.

ـ ولن تحصل على غيرها يا صديقي.. لقد قضمت أظافري من الخوف وأنت مرتفع في آخر واحدة.

حكّ مارك ذقنه مفكراً.. ثم قال بوقار:

ـ شقراء.. أجل.. شقراء قطعاً في المرة التالية.

وقفت تيا من على الصوفا قائلة:

ـ أعتقد أنني سأضع له طاعون الدجاج في شرابه يوماً.. من يريد القهوة مع الحلوى؟

دعت تالي للانضمام إليها في المطبخ رافضة كل محاولة لمساعدتها. كانت عيون تالي تراقبها تنتقي مرطبان مربّى الكرز الأسود من خزانة المؤنة:

ـ على الأقل دعيني أحضّر القهوة.

ـ بكل تأكيد إذا أردت هذا. ستجدين كل شيء تحتاجينه في الخزانة قرب المايكرو ويف.

فتحت تالي باب الخزانة وهي تسأل:

ـ هل تعرفين ويلهام منذ مدة طويلة؟

ـ منذ الأبد تقريباً.. صداقتهما تعود إلى أيام المدرسة التكميلية.. ثم التقيتهما معاً أيام الكلية. نحن نراه في كل سنة أو أقل.. لكن هذه هي المرة الأولى التي جئنا به إلى المزرعة. لا أكاد أصدق أنه عرض علينا أن يرعى كل شيء في المزرعة ونحنّ في الاكوادور؟

ـ أذاهبان إلى الاكوادور؟

ـ أوه.. ألم أذكر لك هذا؟ أجل، سنغادر في نهاية الأسبوع القادم وسنغيب شهرين.. مارك سيعمل في مشروع رائع هناك.. مركز مدينة نموذجي كامل.. أحس بسعادة كلما فكرت به.. وأتمنى أن لا يغيّر ويلهام رأيه برعاية المزرعة لنا.

ـ أهو من النوع الذي يغير رأيه؟

ـ لا.. أبداً.. إنه فقط ليس من النوع الذي يبقى طويلاً في مكان واحد.. في الواقع ما كنا لنحلم أن نطلب منه، لكنهما تحدثا بالموضوع خلال زيارة مارك له في المستشفى. وقال مارك له إنه سيضطر إلى التخلي عن العمل، ذلك أن الشهرين وقت طويل لترك المزرعة.. وتطوع ويلهام لإدارة الأمور لنا.. هكذا.. إنه من النوع المتهور.

قالت تالي بكل براءة:

ـ أوه.. حقاً؟

ـ في البداية قال إنه لن يقبل بفرض أنفسنا عليه هكذا. لكنه بدا في الواقع يتطلع شوقاً كي يقوم بهذا.. ويمكن أن يكون مقنعاً ساعة

يريد.

تمتمت تالي لنفسها:

- أليس هكذا دائماً؟

- عفواً؟

- أوه.. لقد قلت إنه.. ذكي كذلك.

نظرت إليها تيا باستغراب، ثم تابعت خلط العصير مع قليل من السكر والنشاء، وصبت الخليط في وعاء.

- في الواقع، يعتقد مارك أن ويلهام يريد البقاء لأنه متعب من ذلك الحادث أكثر مما يريد أن يعترف، ويحتاج إلى استعادة عافيته.

رفعت تالي رأسها بحدة عن القهوة التي تحضرها:

- أتظنين.. أن هذا صحيح حقاً؟

أراح حاجبا تيا المندهشان تالي:

- أتمزحين؟ شيء بسيط مثل تحطم طائرة لا يحدّ من تحرك ويلهام فلايمور! انسي الأمر.. إذا أردت رأيي.. أنت السبب الرئيسي لرغبته في البقاء هنا.

أجفلت تالي ورفعت رأسها مجدداً:

- أنا؟ لكن بالكاد نعرف بعضنا!

ضحكت تيا:

- ربما.. لكنني كنت أراقبه وهو ينظر إليك وكأنه واثق أنه يعرفك أفضل.

تركت ما كانت تفعله لحظة، ونظرت إلى تالي بعينين ودودتين:

- ولأقول لك الحقيقة.. أتمنى أن تكوني السبب.

هزت تالي رأسها بقوة وهي تحاول التفكير بما ستقول:

- أوه.. لا.. هذا لا يمكن! أظنه معجباً بي في الوقت الحاضر.. لا بأس.. أو ربما هو منجذب لي. لكنني لا أتصور أن

أحظى باهتمامه لأكثر من أسبوعين.

- حسناً.. لست واثقة من هذا.. ربما لو أنك...

أضافت بسرعة:

- أنا لا أريد هذا.

تنهدت تيا بقوة.. محاولتها للجمع بينهما لم تعط النتيجة:

- مؤسف جداً.. لو سألتني أنت مثالية له.. كان يجب أن تشاهدي تلك القطط الصغيرة المتصنعة اللاتي يتواجدن حوله عادة.. بفتنتهن..

وصمتت محرجة ثم:

- لم أكن أقصد أنك لست جذابة.. لكنني أعني فقط..

ابتسمت تالي:

- لا تقلقي.. أعرف ما تعنين.

تابعت صنع القهوة بهدوء، لكن تفكيرها سرح بلهفة فيما قالته تيا.. أمن الممكن حقاً أن تكون مثالية له؟ تيا تعرفه جيداً وتعرف أي رجل هو، أي نوع من الاحتياجات.. أمسكت نفسها فجأة قبل أن تسترسل أكثر.

حاولت جاهدة إبقاء لهجتها ثابتة، وسألت:

- أنت حقاً لن تتمنيه لي.. أليس كذلك؟ ويلهام أكثر الرجال تهوراً.. وأكره أن أفكر بالترمل قبل حتى أن أتزوج.

ضحكت تيا:

- أنت قطعاً لديك حق في هذا، لكن الرجال يتغيرون.

رفعت رأسها عن مزيج الكرز الذي تحضره ووجهها المرح يتحول إلى الجد.

- ويلهام لم يكن دائماً شهماً هكذا. لم يعترف بهذا يوماً لأحد.. ولسوف يختنقني لو عرف أنني قلت لك هذا.. لكن

الأسباب الحقيقية لكونه هكذا.. هي..

تأوهت تالي في نفسها حين قاطع فتح باب المطبخ كلام تيا.. لماذا جاء الرجلان لملء كوبيهما بالعصير في وقت كانت الأمور تثير الاهتمام؟

وهي تراقب ويلهام يناقش صديقه، حاولت تالي إقناع نفسها أن من الأفضل لها أن تبقي فضولها دون ارتواء. فمعرفة المزيد عنه قد يحرك التفهم والعطف، وهما عاملان يمكن أن يحرقا أعتى دفاعات القلوب، وهي التي بدأت لتوها بتكوين قوقعة حول قلبها.

ثم بدأت الأمسية تتجه إلى نهايتها في حديث ودي وضحك، وما إن أنهوا آخر رشفة من القهوة حتى حان وقت الذهاب.

قال وقد أقفل مضيفيهما الباب وراءهما:

ـ لقد نجحت تماماً مع تيا ومارك.. وهذا ما ظننته سيحصل.

قالت وهي تتمنّى لو أنه يبتعد عنها قليلاً:

ـ لقد أعجبت بهما جداً.

أمسك يدها وهما ينزلان سلم الشرفة المسقوفة. امتزاج رائحته مع هواء الليل المنعش البارد المليء برائحة الصنوبر وقربه منها جعل قلبها يقفز من مكانه.. كيف يمكن للمسة بسيطة من طرف إصبع أن تكون محركة للمشاعر هكذا..

قال:

ـ أتعرفين.. قد تكونين المرأة الأكثر غموضاً التي لا يمكن التنبؤ بها، أو حتى تصنيفها، ممن عرفتهن.

ـ أوه..؟ وما هو الشيء الذي لا تستطيع التنبؤ به عني؟ هل هناك شيء خاطىء في ملابسي؟

لو أنها مضطرة لدفعه إلى الاعتراف، فالأمر يستحق العناء.. مع أنها لم تكن من النوع الذي يسعى عادة للإطراء.. ونالت ما

تستحق..

رفع حاجبيه بهدوء:

ـ ملابسك؟ لا.. لكنني لا أعرف تماماً ما إذا كنت تتلاعبين بي أم لا.. ظننتك تحاولين خداعي هذا الصباح حين قلت إنك قادرة على قضاء أسابيع معي دون.. ماذا قلت؟ دون أن يرف لك جفن.. والآن لم أعد واثقاً.. أنت ماكرة أكثر مما ظننت.. وربما يجب أن أعيد تقييمي.

وهذا يظهر ما يمكن أن تفعله الملابس المناسبة، أكان يعي ويلهام هذا أم لا.. لو عرف بالفراشات التي ترفرف في قلبها لكان أعاد حساباته بسرعة.

سألت بخشونة:

ـ وهل يخيب هذا ظنك؟

ردّ بهدوء:

ـ أبداً.. بل أنا أفضّل أن تكون نسائي أنيقات.

ـ نسائك؟ أتظن نفسك حقاً قادر على اقتحام حياة امرأة وأن تسلب لبّها بمجرد النظر إليها مرتين؟ لماذا..؟

أسكتها وهو يضع إصبعين على شفتيها بلطف:

ـ التزمي الموضوع.. نحن لا نتكلم عن «نسائي» نحن نتكلم عنك أنت.

أكمل بهمس أجش:

ـ تالي.. هل خطر ببالك أن هناك ما يستطيع الثنائي أن يفعلاه في ليلة دافئة مليئة بالنجوم، عدا التراشق بالكلام؟

أخذت نفساً عميقاً تحاول أن تجد قواها التي خارت.

كانت أنوار نجوم الصحراء الهشة أكثر إشراقاً مما تدرك، بما يكفي لأن يرى ويلهام جفنيها يغمضان ويرتجفان.. ورفعت رأسها

بتلك الطريقة التي طالما أعجبته وجعلت الضحكة ترتجف خلف شفتيه.. شعرها الناعم يطير في هواء ليل الصحراء ليلامس وجهه ويده.. وأحسّ بالدفء يتحرك في داخله.. دون تفكير تحرك نحوها نصف خطوة، ثم أمسك نفسه مع انفتاح عينيها.

قالت تحاول تجاهل مشاعرها:

ـ لن أعترف بشيء كهذا.. أنا لا.. أعني.. أنا لست مهتمة.. ويلهام.. الوقت متأخر وأريد الذهاب إلى المنزل.

للحظات بقيت تنظر إليه وهو ينظر إليها، وجهه جامد غير معبّر، كتمثال من رخام في ضوء القمر.. ثم.. ببطء وتعمد.. جذبها إليه.

لم تكن ساذجة إلى الحد الذي بياغتها فيه طبعاً.. وشدت عضلاتها لتقاومه.. لكن قوته عطلت إرادتها.

تمتمت لا تعرف ما تريد أن تقول.. ولا تعي أنها تكلمت:

ـ ويلهام.. ويلهام..

ثم تلاشى بقية العالم.. ولم يعد هناك شيء سوى ويلهام.. لا شيء سوى شوق معذب.. لم تعد تعرف ما إذا كان الذي تحس به ألماً.. أم فرحاً.. وهي حقاً لا تهتم الآن.

لكن جزءاً منها كان يهتم.. في مكان ما في داخلها صوت متلهف صغير كان يهمس محذراً أو يحاول. إنه الألم.. هذا ما هو.. أكمل الصوت الصغير بإصرار.. الألم والارتباك، لا شك في هذا. ولن يكون هذا الألم والارتباك شيئاً أمام ما ستشعر به لو أنها كانت غبية بما يكفي لتستسلم إلى شرك لن يقودها إلا إلى البؤس.

تذكري: إنه نسر.. تابع الصوت التحذير: وأنت مجرد عصفور طنان صغير.. سيطر الصوت المحذر المستمر على زمام الأمور.. ودون وقت للتأخير.. لم يكن يلزمها الكثير من معرفة بالرجال لتفهم

أن ويلهام غلايمور كان في مرحلة تعليق الطعم.

وضعت يديها على صدره ودفعته بعيداً عنها.. ولدهشتها لم يصمد سوى لحظة، ثم أنزل يديه إلى جانبيه وتراجع خطوة.

قالت متصلبة:

ـ أعتقد أنني تسببت في هذا.. لكنه لن يحدث مرة أخرى.

حتى في الظلام كانت تعي احتراق عينيه، كانتا كشعاعي لايزر تخترقان كل دفاعاتها.

قال بخشونة:

ـ لا تكوني واثقة هكذا.

زادت ثقتها بنفسها مع برود نظرته:

ـ لكنني واثقة.. حسناً.. أعترف أنني منجذبة إليك لكن هذا كل شيء، وأنا.. أكره الاستسلام للمشاعر التي لا معنى لها.

ـ هكذا إذن.. والمشاعر بيننا لا يمكن إلا أن تكون لا معنى لها.. أليس كذلك؟

ليس هذا وقت الكلام اللئيم، وأجابت:

ـ أجل.. أتعرف لماذا أنت منجذب إليّ؟

ـ الأن الحياة دائماً هادئة حولك؟

صاحت:

ـ أحاول أن أكون جادة.. السبب أن..

ـ أنني أتمتع بمحاضراتك كثيراً؟

أحست بأن من الجيد أن تنزعج منه. أو على الأقل تشعر بأمان أكثر بعدما كانت تشعر به.. قالت بتوتر:

ـ لا.. أنت منجذب بسبب الطريقة الدرامية التي التقينا فيها أولاً.. ثانياً لأنني أعتقد أنك تظنني لست سيئة المظهر. ثالثاً لأنك تظن أن لدي بضع ميزات غير عادية.. و..

ـ يبدو لي أنك كنت تعطين هذا التجاذب الذي لا معنى له بيننا، الكثير من التفكير.

رفضت أن تتركه يخرجها عن الموضوع:

ـ . . وأنا دون شك منجذبة إليك قليلاً، ولنفس الأسباب واعذرني على تكرار قولي. . لكنني واثقة أن الإلفة بيننا لن تولد سوى الاحتقار. . فأنا «بطانية مبللة» أفسد السعادة، أتذكر؟

وكيف لي أن أنسى؟

لكنه لم يقل هذا بالكلمات بل برفع رأسه إلى الأعلى.

تابعت:

ـ وأنت لست سوى منهور مجنون. .

وصمتت تفكر بوصف لطيف أكثر. . فاقترح:

ـ مغامر؟

ـ أجل. . شكراً لك. . هذا وصف جيد.

استدارت إلى سيارتها لكنها توقفت حينما وضع يده على ذراعها. . وجمدت. .

قال:

ـ وطالما أبقى أنا ملتزماً موقفاً بعيداً. . فأنت تنوين إبقاء مشاعرك تحت سيطرة كاملة. . وهكذا إذا كنت أرغب في شيء لا معنى له، فمن الأفضل أن أبحث في مكان آخر. . أهذا ما تحاولين أن تقوليه لي؟

نظرت إليه بحدة، وصاحت:

ـ بالضبط. . والآن أتسمح أن تتركني؟ أريد حقاً أن أذهب إلى المنزل.

ـ هناك مجرد مشكلة بسيطة أراها في نظريتك. .

ـ واحدة فقط؟

ـ الأمر ببساطة أننا قد لا نكون مختلفين كما تحبين أن تظني. كنت أراقبك عن كثب يوم أمس فوق الحافة في الوادي. . ورأيت كيف تلهفت إلى أن تقطعي الوادي مع تلك الحمالة فوق شبكة الحبال.

ابتسم بثقة، حتى لمعت أسنانه البيضاء. .

يا إلهي. . أنا في ورطة فعلية. . منذ متى أجد رجلاً يفتنني بأسنانه؟

تابع:

ـ بكل تأكيد تحولين حاجتك إلى المخاطرة إلى أعمال الإنقاذ. . لكنك مغامرة مثلي تماماً. . ولو أنك صادقة لاعترفت بهذا لنفسك بدلاً من التبجح أمامي.

ـ التبجح؟

لو استمر في إغضابها مع كل جملة، فستكون على ما يرام. .

ـ شكراً لك على محاضرتك هذه. . والآن لو كنت لطيفاً فاتركني. . .

ـ بكل سعادة. . لكن هناك شيء واحد بعد.

وقفت بثبات: وما هو؟

ضحك وكتف ذراعيه:

ـ إن الوقت وحده سيقرر ما قد تولده الإلفة بيننا.

في الوقت الذي تجاوزت فيه تالي الإشارة التي تعلن عن حدود مدينة «كوتشيزبند» كانت قد تقدمت شوطاً كبيراً في تجميع رباطة جأشها. . وكما قالت تيا. . ويلهام ليس من النوع الذي يبقى طويلاً في مكان واحد. . وكل ما عليها أن تفعل أن تجد طريقة لمقاومة ذلك الخليط من المظهر الجميل والقوة الرجولية الواثقة من نفسها. . ولشهرين محمومين. . ولماذا الإنكار؟ إنه رجل رائع. . من أكثر

الرجال الذين التقتهم جاذبية.. لكنه ليس الرجل المناسب لها.. وإن استمرت في خداع نفسها بالظن هكذا فسيكون هناك أوقات سيئة تنتظرها.

لا.. يجب بكل بساطة أن تجد وسيلة تبقيها بعيدة.. وطريق البداية واضح.. لن تقبل بعد اليوم موعداً معه.. وستبذل أقصى جهدها لتجنب اللقاء به لوحدها. والأهم من كل هذا أن تتوقف عن التفكير كثيراً به!

وستبدأ في الحال.. دخلت كاراجها، أطفأت المحرك وانتزعت بكل حزم ويلهام غلايمور من أفكارها.

* * *

٦ ـ رفاق الخطر

كان من عادة تالي أن تكافىء نفسها صباح كل يوم أحد بالتأخر في النوم، قبل الحملة الأسبوعية لتنظيف المنزل.. لكن لم يدهشها أبداً أن تجد نفسها تصحو قبل الفجر صبيحة العشاء في منزل أسرة ميلورد، الليل لم يأتها بكثير من الراحة.. إن دفع ويلهام غلايمور من تفكيرها، أهون بكثير من أن تبقيه خارجه.

نظرت إلى منبه الطوارىء أمامها على الطاولة.. لماذا لا يقع الناس في المتاعب في أوقات مناسبة؟ وتراقصت ابتسامة على شفتيها.. لقد نسيت أن ويلهام أصبح عضواً من أعضاء الفريق.. وإلى أن يذهب في طريقه، فإن هوايتها لن توفر لها الكثير من الهروب.

هذا ما ذكّرها أن عندها شيئاً ما تريد أن تتحدث به إلى أحد أفراد الفريق.. وبدأت بطلب رقم الهاتف قبل أن تتذكر أن كوني بورجز لن يعجبها تلقي مخابرة في السادسة من صباح يوم الأحد! وتنهدت.. متذكرة الأيام التي كانت فيها تستطيع أن تنام الصباح كله بتفكير صافٍ. أوه.. حسناً.. ليس هناك أي شيء يجبر المرء على الانتظار حتى التاسعة صباحاً للبدء في التنظيف.

بعد ساعات ثلاث من العمل أجرت المخابرة إلى كوني، ثم أعادت السمّاعة مكانها. ولحظة فعلت هذا رن جرس هاتفها.. تركته

برنّ مرة ومرتين.. وهي تأخذ نفساً عميقاً تهدىء نفسها.. لم تكن تشك من هو المتصل.

ـ تالي؟

إنها محقة طبعاً.. وردّت بهدوء، وارتفع خفقان قلبها بقدر ارتفاع الصوت في أذنها:

ـ نعم.. من المتكلم؟

حين لم ترد، أكمل بلهفة:

ـ ويلهام غلايمور؟ ربما تذكرينني؟

ردّت وصوتها بارد:

ـ أوه.. أجل.. بغموض. ماذا أستطيع أن أفعل لك؟

ـ ما نستطيع أن نفعله معاً هو البدء في مرحلة تدريبي التالية. لقد تهربت قبل أن نبحث الأمر ليلة أمس.

ـ أنا لم أتهرب بكل تأكيد.. لكنني نسيت. لدي أشياء كثيرة تشغل تفكيري..

قاطعها ولم تجد صعوبة في تصور ابتسامته:

ـ سأقول إنك أنسيتي.

لم تكن تعرف من قبل أن الناس قد تحمّر وجوههم وهم يتحدثون في الهاتف.. لكنها الآن عرفت. وقالت بسرعة:

ـ لم أقصد هذا..

سأل ببراءة:

ـ تقصدين ماذا؟

ـ لم أكن أعني.. أنني.. كنت أتكلم عن مشاكل في عملي.. و..

للأسف! لم يحتج إلى أكثر من ثلاثين ثانية ليحولها إلى مراهقة مرتبكة.. وتنهدت:

ـ ما رأيك بيوم السبت القادم؟ طوال اليوم إذا أمكن.. هناك الكثير الذي يجب أن تمرّ به.

ضحك.. ربما ليست بارعة في إخفاء التحدّي من صوتها، وقال:

ـ السبت إذن.. أخبريني، هل سأترقّى من تنظيف الشاحنة إلى تلميع الكروم؟

ضحكت تالي:

ـ لا.. لقد حان وقت جعلك تتعرف على التضاريس الأرضية، بالسير في الممرات المحلية، يمكنك أن تعرف مكان المخاطر مسبقاً.. الجرافات الثربة، انهيار الصخور، وأشياء كهذه.. وتبدأ بأخذ فكرة أين يمكن أن يضيع أحدهم.

ـ أمر معقول.. اسمعي، إذا كان هذا تدريب طوال اليوم فلماذا لا آتي معي بطعام نزهة؟

ـ فكرة رائعة.. لكن من الأفضل أن تجعل الطعام لثلاثة.. فستكون كوني بورجز معنا.. إنها رمادية الشعر، امرأة كالأم بالنسبة للفريق.

وهنأت نفسها لدقة توقعاتها.. لكنه ضحك:

ـ مرافقة.. حسناً.. هذا مفهوم.

ـ إنها ليست مرافقة.. لكن من المهم لك أن تبدأ بالتعرف إلى الفريق، كالتعرف على المنطقة جغرافياً.

همهم ويلهام بهدوء مليء بالشكوك.. لكن قبل أن يتابع الضغط في المسألة، حددت زمن اللقاء ومكانه، وودعته بسرعة مقفلة الخط.

وقفت لحظات ويدها فوق الهاتف.. يبدو أنها غير قادرة على تنفيذ أي مخطط دون أن يرى عبره بوضوح. اللعنة عليه لأنه دفعها

أصلاً إلى الاعتماد على التخطيط!

بدا الأسبوع الذي تلاه وكأنه سيستمر إلى الأبد.. بالرغم من أنها كانت قد بقيت مشغولة في المصرف وخارجه.. كان من بين الأسباب أنها لم تستطع إبعاد نفسها عن التطلع بذعر في كل مرة ينفتح فيها باب المصرف.. وعن حبس أنفاسها كلما رن جرس الهاتف، وعن أن تغمرها خيبة الأمل حين يكون المتكلم شخصاً آخر.

لكنه كذلك كان أسبوعاً مفيداً.. أسبوعاً تعلمت فيه شيئاً عن نفسها وتوصلت إلى استنتاج هام.. كان ويلهام المسؤول عن هذا.. باقتحامه العاصف كيانها استطاع أن يحرك المشاعر التي طال كبتها.. وأشعل فيها كذلك النشاط والاندفاع للحياة الذي كان هاجعاً من زمن بعيد.. مع مرور الأسبوع بدأت تفهم أن عملها المريح الروتيني كان يوفر لها أكثر من إعالة نفسها.. لقد كان ملاذها الآمن طوال هذه السنوات.. في وقت، ما عدا عملية إنقاذ واحدة، كبتت بحزم حاجتها الطبيعية للتحدي والإثارة.. والمغامرة.

عملها نظمها وجعلها تنضج كذلك. ولهذا هي ممتنة.

لكن من الواضح أنه سيأتي وقت تترك فيه ملاذها الآمن خلفها، وتفتش لنفسها عن مستقبل عملي يعني لها أكثر من الأمان. وهناك أشياء كثيرة قد تكون بارعة فيها.. مرة أرادت أن تكون حارسة في خيالة المحمية الوطنية.. حسناً، ولماذا لا تستطيع أن تكون؟ مع حلول يوم الجمعة قررت أن تعود إلى المدرسة لتبدأ من الصفر.. وأمضت فترة الغداء في كلية جمعية كونشيز تتحدث إلى المستشار.. ودون أن تشعر وجدت نفسها ولدهشتها قد وقعت عقداً لدورتين مسائيتين في علم الأحراج والغابات، تبدأ في الخريف.

وهذا وقت بعيد.. لكن ربما سيكون هذا كله للأفضل.. فلديها

الآن مشاكل شخصية ضاغطة يجب أن تتعامل معها أولاً!

* * *

كانت تالي تدندن لنفسها وهي أمام مغسلة المطبخ، تملأ قربة الماء لأجل رحلة الاستكشاف، حين رن جرس الباب.

قالت مبتسمة:

ـ أهلاً كوني.. سأكون معك بعد..

اتسعت عيناها وقالت مشدوهة:

ـ أنت.. ترتدين التنورة.. والكعب العالي! كيف ستتمكنين من السير في..

فتحت كوني يديها باعتذار:

ـ لا أستطيع المجيء معك..

تجمدت تالي بإحباط: أوه.. لا!

شدّت كوني شفتيها قائلة:

ـ بلى.. لقد اتصلت بي ابنة أخي لتوّها.. لقد استيقظت مع أنفلونزا وزوجها مسافر في رحلة عمل.. ويجب أن أذهب إليها لأساعدها مع الأولاد.

ـ لماذا لا تأتي بهم إلى هنا؟ قد يحبون هذا..

هزت رأسها:

ـ أريك في الثانية من عمره، وجون ستة أسابيع.

عضت تالي شفتيها، وفكرت أن تعرض عليها تبادل الأدوار. طفلان وبضعة جراثيم انفلونزا أقل خطراً بكثير من يوم طويل في البراري برفقة ويلهام، ودون وجود شخص ثالث.. تنهدت.. لا.. هذا لن ينجح.. لقد التزمت أمام جشوا باستمرارية تدريب ويلهام ولن تستطيع التراجع أبداً.

بعد رحيل كوني أكملت تالي تعبئة الماء مقطبة، ثم نظفت

المطبخ، وهي تفكر طوال الوقت كيف ستتعامل مع هذا التطور الجديد.. وأدركت فجأة.. أن ويلهام تأخر نصف ساعة عن الموعد.. أين هو الآن بحق السماء؟ هذا سوء تقدير منه.. فإذا كان يعرف أنه سيتأخر هكذا، فأقل ما يجب فعله هو أن يتصل.. لربما نسي.. لا شك أن لديه أشياء مهمة..

ضحكت تالي من نفسها.. منذ نصف دقيقة كانت تقضم أظافرها قلقاً لفكرة قضاء يوم كامل معه.. وها هي الآن متوترة لأنه لم يأت!

صوت توقف سيارة بسرعة أبعد عنها كل الأفكار المتقلبة. إنها البورش البيضاء.. لماذا لم تستغل النصف ساعة تأخير في إشراك عضو آخر من الفريق؟ حسناً.. فات الوقت الآن.. مشت بخطى ثابتة وتقدمت إلى الباب.

ذهلت للغضب المشتعل على وجه ويلهام.

- ويلهام.. ما الأمر..

قاطعها ببرود وهو ينظر من فوق كتفها إلى غرفة الجلوس:

- أين صديقتك؟

تراجعت دون قصد.. هل هو غاضب منها؟ لكن لماذا؟

- كوني؟ لم تتمكن من المجيء.. في اللحظة الأخيرة..

- سنأخذ سيارتي إذن..

بحركة نافذة الصبر أخذ حقيبتها من يدها واستدار مبتعداً، واضطرت إلى السير بسرعة كي تلحق به.. بعد رمي أغراضها في الصندوق أجلسها في المقعد بجفاء وأغلق الباب متجهماً.

كانا قد وصلا ضواحي البلدة وويلهام لم ينطق بكلمة، نظرت إليه بقلق وقالت:

- لدي انطباع بأنني فعلت شيئاً أزعجك..

رد باختصار:

- بإمكانك قول هذا.

حتى أنه لم يعتذر على تأخره! ولماذا هو غاضب؟ حسناً، إذا كان يريد إبقاء الأمر لنفسه، فهذا لا بأس به بالنسبة لها. ولم يتكلما إلاّ حين وصلا إلى تقاطع الطريق الرئيسية.

سألها دون أن ينظر إليها: في أي اتجاه؟

- شرقاً.. فكرت أن نبدأ داخل حدود محمية كورونادو الوطنية للغابات.. نحن دائماً نستدعى إلى هناك مرتين أو ثلاثة في السنة لمساعدة جوالة الحرس في المحمية في التفتيش عن رحالة ضائعين.

- أليست طرقاتهم جيدة؟

معاناته لا تعطيه الحق في السخرية من موظفي حرس الغابات.. الذين يعتنون بصيانة الطرقات بشكل رائع.. وردّت ببرود:

- طرقاتهم رائعة.. لكن الرحالة السخفاء يتجولون خارج الممرات المخصصة دون اتخاذ الحيطة العادية، مثل حمل خريطة أو بوصلة.. مثلما هناك أشخاص سخفاء يسعون وراء المتاعب بالطيران في طائرة شراعية خفيفة في وقت لا يعرفون كيفية إدارتها.

ردّ بحدّة:

- ونساء سخيفات يسعين وراء المتاعب بالتجول لوحدهن في الشوارع ليلاً.

نظرت إليه بحدّة: ماذا؟

- سمعتني.. لا تقولي لي إنك انتقلت من مكان سكنك في الأسبوعين الماضيين؟

- ويلهام.. عمّ تتكلم؟

- أتكلم عن أنني حين أوصلتك إلى منزلك بعد العشاء في الفندق وصلنا أمام المنزل بعد بضعة متعطفات من الفندق.. لكن

حين ظهرت هناك اليوم.. لم يستطع الرجل الغاضب لخروجه من فراشه في الثامنة صباح السبت أن يتذكر أنك تسكنين هناك.

نظر إليها بشراسة بعينين خضراوين:

ـ هذا ما أتكلم عنه!

منعت نفسها أن تشهق، لكن حرارة خديها كانت دليلاً على فشلها في منع نفسها أن تحمر خجلاً.

ـ أوه.. يا إلهي.. نسيت كل شيء عن هذا.. لا عجب أنك قلت بأنك تعرف كيف تصل إلى شقتي.. ظننت.. لست أدري ما ظننت. ولهذا السبب تأخرت؟

لم يكن ويلهام من النوع الذي يذوب غضبه أمام ضحكة جبانة.. تمتم:

ـ أجل.. اللعنة! لهذا تأخرت. لكن لا تغيري الموضوع.. أريد تفسيراً.

تنفست بعمق، وقالت بحذر:

ـ بكل تأكيد.. كبداية، لديك فكرة سيئة عن الجريمة في المدن الكبرى.. كوتشيزبند ليست نيويورك، إنها بلدة صغيرة.. والمرأة يمكن أن تشعر بالأمان التام في الشوارع ليلاً.. لذا لم أكن أفعل شيئاً خطيراً أبداً.

فكر بكلماتها وبدا أنه سكن قليلاً، وقال ببطء:

ـ حسن جداً.. أنت محقة وأفهم هذا. مع ذلك لن تعرفي أبداً..

قاطعته ضاحكة:

ـ أجد صعوبة في التصديق أن المغامر العالمي المشهور الذي ساعدت في انتزاعه من الآلة الطائرة السخيفة في جبال «تشيريكاهوا» هو الآن جالس هنا بوجه متجهم يعطيني محاضرة عن الأمان!

راقبت التجهم يختفي عن وجهه دون إرادة منه تقريباً.. ثم أخذ يضحك:

ـ حسناً.. أعترف أن الحق معك.

استرخت على المقعد مرتاحة:

ـ بالطبع الحق معي.. وكأنني..

قاطعها بصوت جاف:

ـ لكنني لا زلت أنتظر تفسيراً.

هزت رأسها:

ـ عن سبب قولي إننا وصلنا إلى منزلي ونحن لم نصل؟

ـ أجل.. هذه المسألة الصغيرة!

تنهدت.. يبدو أن الوقت مهيأ لقول ما حصل فعلاً:

ـ لو أرجعت تفكيرك إلى الوراء إلى ساعة كنا نسير، أظنك ستذكر أنك لم تكن رفيقاً لطيفاً..

ـ هيّا الآن.. أنا لم أفعل شيئاً لم تريديه.. في أعماقك.. حين عانقتك..

قاطعته بسرعة:

ـ أنا لا أتحدث عن هذا.. أعني ليس فقط عن هذا.. كنت فظاً لا نطاق.. وأنا لا أحب في الواقع أن يدعوني أحد بأسماء غريبة..

جاء دوره للذهول:

ـ أسماء غريبة؟ مثل ماذا؟

ـ حسناً.. هناك «البطانية المبللة» مثلاً..

ـ أوه.. بالتأكيد.. لكنني كنت فقط..

ـ ومتكبّرة.. وبغيضة و..

قال بخجل:

ـ أوه.. بلى.. نسيت. لا أظن أنني كنت في أفضل حالاتي..

أليس كذلك؟

لكنها لم تكن مستعدة للتوقف، ليس بعد أن سيطرت عليه.

ـ وهناك «المتزمتة» ودعنا نرى إذا كان هناك شيئاً آخر.. لكنني لا أستطيع تماماً أن..

ـ هناك «المضجرة»..

أبعد عينيه عن الطريق ليضحك لها ساخراً.

وأبعدت ابتسامتها ما تبقى من التوتر بينهما، وبدا لهما الأمر كله مضحكاً، فضحكا حتى سالت دموعهما.

* * *

ـ هل تنتقين عادة هذا العدد من الصخور.. أم أنك تريدين أن يكون لديك شيء تضربينني به إذا خرجت عن الخط؟

ضحكت ثاني.. فكرة خروجه عن الخط كانت بعيدة جداً عن تفكيرها.. في البداية كانت قلقة، لكن خلال دقائق من بدء الرحلة، واتباع الطريق المتصاعد المتلوّي نحو برج مراقبة النار عند القمة، كانا قد تعمقا في النسلية في حديث آخر غير شخصي.

قالت له إن جبال «تشيريكاهوا» تسمّى أحياناً «بجزر السماء» لأنها ترتفع كجُزر شاهقة فوق بحر ذهبي من رمال صحراء سونورا.

سرعان ما أصبحا يتحدثان بارتياح حول كل شيء، من الحشرات المؤذية إلى الزهور البرية، إلى الهنود الحمر الذين أعطوا الكثير من الأماكن في المنطقة اسمها الأصلي. هذا كان وهي لا تقف لتلتقط أنفاسها، بينما ويلهام لم يتوقف لحظة، حتى أنه لم يكن يتنفس بصعوبة.. وكأنما رحلة سير تتسلق ثلاثة آلاف قدم، مسيرة يومية عادية له.. وكان في حالة أفضل منها بكثير! وكم هذا مثير للأعصاب!

لكن مع وصولهما إلى القمة تلاشى غضبها.. الهواء هنا صافٍ

جداً، والمنظر رائع، ورائحة الصنوبر تفوح في الجو. ووجدا مكاناً محمياً بعيداً عن الهواء، وأفرغا سلة الطعام من الدجاج البارد وسلطة الخضار التي جاء بها ويلهام. بدا أن هناك الكثير من الطعام.. لكنهما تمكنا من أن يأكلا، ليس فقط حصتيهما بل حصة كوني كذلك.. بعدها كانا يحتسيان القهوة، ويقضمان بسكويت الشوكولا المصنوع يدوياً، والتي كانت مساهمة تالي في الطعام.. بيدها الأخرى كانت تعبث بقطعة حادة من الغرانيت موشّاة بالزجاج المتحجر.

قالت تالي:

ـ لا.. أنا لا أفكر بضربك بها على رأسك.. ولا يعني هذا أنني لن أفعل لو كان هناك سبب وجيه.

ابتسم متكاسلاً، دون أن يأخذ كلامها على محمل الجد.. وكانت تحس بالتكاسل أيضاً، وأسندت ظهرها على جذع شجرة صنوبر وارفة عتيقة.. وقالت:

ـ أعتقد أنني التقط الكثير من الصخور الغرانيتية.. إنها هواية أخذتها عن أبي.. كان أبي هاوياً جمع الصخور.

ـ كان؟

ـ أجل.. مات منذ ثلاث سنوات.

ـ أنا آسف.. أكنت تذهبين معه لالتقاط الصخور؟

ابتسمت تتذكر:

ـ الصخور كانت مجرد مكافأة.. ما كنا نفعله هو التفتيش عن المناظر الجميلة.. كنا نمضي أغلب نهايات الأسابيع، نجوب الجبال، نبحث عن عروق الذهب التي ستجعلنا أغنياء.. حين كنا سنجدها كان سيترك العمل كعامل معدّات ثقيلة في المنجم وسنعيش في بحبوحة ورخاء فيما تبقى من حياتنا.

ـ وهل وجدتما شيئاً؟

ـ أقرب ما اكتشفناه إلى الذهب هو كومة من كبريتات الحديد.

ـ كبريتات الحديد؟

ـ ذهب الأغبياء.. يبدو تماماً كالذهب الحقيقي.. لكن ليس له قيمة.

ـ أمر محبط.. مع ذلك فلا بد أن هذا كان تسلية لفتاة صغيرة.. أن تجوب الجبال تنقب مع والدها.

كان في صوته رنة تشبه الأسى.. واستقرت بارتياح مستندة إلى الشجرة، والكوب البلاستيكي بين يديها:

ـ كان ذلك رائعاً.

ترددت في البداية، ثم باندفاع بعد أن رأت اهتمامه، أخبرته كيف كانا يقومان بهذا.. أخبرته عن الرحلات الطويلة الجميلة.. عن النوم تحت سماء الليل الرائعة، والنجوم تلمع وتتراقص كأنها أنهر من الماس.. حول البخنة باللحم التي تسيل رائحتها اللعاب في الفم، والتي كانت أمها تحضرها على نار المخيم، عن ذلك الوقت الذي ضاعت فيه أختها جوانا لست ساعات، ثم كيف اختبأت منهم لأنها كانت خائفة من أمها أن تضربها لتمزق قميصها.. عن كم كان البرد قارساً وقت الاستيقاظ باكراً وهي في قميص النوم، وكيف أن أمها كانت تسمح لها بقطرات من القهوة في كوب حليبها الساخن المحلّى لمجرد مساعدة دورتها الدموية على الجريان.. وأكملت مبتسمة:

ـ أظن أن هذا سبب حبي الشديد للقهوة.. كل ما عليّ أن أفعله هو تذوقها لأحس برائحة هواء الجبل البارد..

جلست مذعورة:

ـ يا إلهي.. منذ متى وأنا أتكلم؟

كان ويلهام مستلقياً فوق عيدان الصنوبر، كتفاه مستندتان على صخر ناعم الملمس، وعلى بعد أقدام منها كوب قهوته الفارغ على صدره، وأبعد عينيه عن الغيوم البيضاء كالقطن المسافرة عبر السماء، ونظر إلى ساعته:

ـ ثلاثة أرباع الساعة، أكثر أو أقل قليلاً.

ـ ثلاثة أرباع..؟

لم تكن تعرف أن من الممكن الإحساس بمثل هذه الراحة في وجوده.. مع ذلك ثلاثة أرباع الساعة؟ هل هذا ممكن؟

قالت مبتسمة:

ـ أرجو أن لا أكون أضجرتك.

ـ أبداً.

أنهت قهوتها الباردة الآن. ووضعت الكوب إلى جانبها:

ـ ماذا عنك؟ كيف كانت طفولتك؟ ألم أقرأ في مكان ما أن والدك كان كولونيلاً في سلاح الجو؟ لا شك أنك سافرت كثيراً حتى وأنت صغير.

تغيرت ملامح وجهه وأجاب بخشونة:

ـ كثيراً.. لكنني لن أضجرك بالتفاصيل.. إنها مملة حقاً.

سألت بعد لحظات صمت.

ـ هل سمعت شيئاً من تيا ومارك منذ سفرهما؟

طغت موجة إحباط شديدة عليها حين رحب بكل استعداد بتغيير حديثها.. لن يتطوع بأية معلومات عن ماضيه ولن يسأل المزيد عن ماضيها.. الموضوع مقفل.. ولن يهتم أبداً بأن يعرفها أكثر.. كيف خادعت نفسها كما فعلت؟ ما كان يصدر عنه من همهمات خلال حديثها لم يكن للتفهم، بل زفرات سخرية!

لذعت دموع غير متوقعة طرفي عينيها، وبجهد كبيتها، محاولة

أن لا تشرق بريقها.. أمضت بضع لحظات لتفهم عما كان يتكلم، واضح أنه كان يجيب على سؤالها، ثم استرسل في حديث آخر. حين تمكنت أن تفهم ما كان يقول دهشت وسرّت، كان يخبرها عن زيارة تلقاها من زميل دراسة قديم لم يره منذ أجيال.

ـ قال جيل إنه سمع من فرق الإنقاذ في المنطقة أنني انضممت إليهم هنا، ويريد أن يرحب بي في المجموعة، لماذا يبدو الجميع مذهولاً لسماعه أنني أقوم بشيء نافع؟

ـ في أي فريق يعمل صديقك؟

ـ فريق «سييرا مادري» في كاليفورنيا.

ـ أتعني جيل كرانستون؟ أهو صديق لك؟

رفع حاجبيه:

ـ صديق قديم.. أتعرفينه؟

ـ أتمنّى لو أنني أعرفه.. إلاّ أنني أعرف بعض كتيباته التي كتبها حول عمليات الإنقاذ في حالات الانهيارات.. إنه جيد فيها.

وقف متكاسلاً:

ـ حسناً.. ستحصلين على أمنيتك، سيجري جيل دورة تدريبية خلال عطلة الأسبوع نهاية هذا الشهر.. ولقد قدّرت أنك ستكونين مهتمة، فأحضرت دعوة لك.

جلست تالي بسرعة:

ـ حقاً؟ دورة تدريب مع جيل كرانستون؟ هذا رائع! وهنا في أريزونا؟

ثم قاومت اندفاعاً مجنوناً للضحك.

أمر سخيف.. ها هي تقفز مجدداً.. لقد أخرجها بعنف من حالة الهدوء اللطيف إلى الخزي فالإحباط، ثم إلى الدهشة والسرور والحماس.. كل هذا فيما لا يزيد عن دقيقة.. وهي تعرف تماماً أن

هذه مجرد البداية، أمام ما يمكنه بسهولة أن يدفعها إليه، ويجب أن تفعل شيئاً.

ولسوف تفعل ما إن تعرف ما يجب أن تفعل.

ردّ ويلهام:

ـ لا.. بل ستكون في كاليفورنيا في «السييرا» على بعد مئتي ميل من لوس انجلوس.

ـ لوس أنجلوس؟

حدقت به بارتباك.. كان يزيد من ارتباكها بأصدقائه الأثرياء.. أيظن حقاً أنها قادرة على تحمل مصاريف السفر إلى كاليفورنيا متى أرادت؟

التقط حقيبة ظهره، وحملها، ثم ضحك:

ـ لا داعي لأن تشكريني هكذا.

ـ لا.. أنا ممتنة لك.. الأمر فقط.. قد تكون مشكلة لي أن أصل إلى هناك.

ـ ولماذا المشكلة؟ ستطير بعد ظهر الجمعة ونصل هناك في المساء، فما المشكلة في هذا؟ يمكنك أخذ بضع ساعات عطلة من عملك في المصرف ظهر الجمعة، أليس كذلك؟

تابعت تحديقها به: نحن؟

ـ طبعاً.. نحن مدعوان معاً.. ويمكن أن نسافر معاً.

قالت وهي تفكر بالعالم الغريب الذي جاء منه، وتتساءل كيف يشعر المرء في مثل هذا العالم.

ـ هذا يبدو لطيفاً.. لكنني آسفة، فالمشكلة ليست في كيفية السفر، بل هي في كيفية دفع المصاريف. لقد اشتريت لتوي ستائر جديدة لغرفة الجلوس، و..

ـ تالي.. لم أكن أنوي أخذ أجر منك لنقلك في طائرتي.

ـ . . وحسابي المصرفي يقارب حدّه الأدنى . . وأنا . . أتملك طائرة؟

ـ بالطبع . . طائرة نفاثة صغيرة . . في مطار «فيستا» . . وأنا أتجول فيها عادة .

ـ لكن . . البورش؟

ـ مستأجرة . . إنها للتنقل المحلي فقط .

ـ أوه . . !

عالم مختلف وصف لا يفي بالمراد . . كان يجب أن تعرف أن عنده طائرة نفاثة خاصة لو فكرت بالأمر قليلاً . لكن أمكن لأحد أن يستأجر سيارة «بورش» حقاً؟

لا . . ليس في «كوتشيزبند» . . إنها واثقة من هذا!

فاجأته بالانفجار ضاحكة وهما يبدءان المسير نزولاً . يبدو أنها أخيراً ستعرف شيئاً من عالمه، فهذه فرصة لن تستطيع إقناع نفسها بتفويتها . . على أي حال، لن يكونا لوحدهما أبداً، إلاّ وهما في الهواء . . وسيكون تفكيره مشغولاً تماماً . .

ـ حسن جداً . . يعجبني أن آتي معك . . وأشكرك لحصولك على دعوة لي .

لمعت عيناه تجاوباً :

ـ هل يمكن أن أذهب إلى أي مكان دون مدربتي؟

سخرت تالي :

ـ مدربتك؟ أنت لا تحتاج إلى مدرب . . أنت استوعبت ما في الكتابين في أسبوع واحد .

رفع حاجبيه ساخراً :

ـ لا شك أن أذناي تخدعانني . . للحظات ظننت أنني تلقيت إطراء على اجتهادي .

ضحكت مجدداً :

ـ ويلهام . . هل لي أن أطرح سؤالاً؟

هزّ رأسه إيجاباً وعياء على وجهها . . فجأة تسارعت نبضاتها فأشاحت بوجهها :

ـ لماذا تبذل كل هذه الطاقة لأجل الانضمام إلى الفريق ولفترة قصيرة؟

ـ وما الذي يجعلك تظنينها فترة قصيرة؟

ـ لن يغيب الزوجان ميلورد أكثر من شهرين . . ولن تبقى أكثر من هذا . . صحيح؟

مع بقائه صامتاً استدارت إليه : هل ستبقى؟

ـ هذا يتوقف على أشياء كثيرة .

ـ على؟

ـ على ما إذا كنت سأجد قطعة أرض تناسبني . . لكنني أفتش . . قد لا أرغب في قضاء الصيف في أريزونا . . لكنني بدأت أفكر أن الشتاء هنا رائع . . ما رأيك بالفكرة؟

وابتسم لها متكاسلاً . . فكادت تقف مسمرة . . لكنها بإحساس دوار، أجبرت ساقيها على متابعة التحرك فوق الطريق الوعرة . . هذا آخر ما ينقصها! فمع قليل من الحظ ربما تمكنت من منع نفسها من أن تحبه لمدة شهرين . . لكن لو أنه عاش هنا . . ؟

ـ حسن جداً . . لست أدري . . إنه مكان هادىء جميل هنا . . لكنني أعتقد أنك ستسأم بسرعة .

لم يجهد نفسه في إخفاء تسليته . . وأجفلت لقدرته على قراءة أفكارها . . وقال ساخراً :

ـ بالعكس . . يبدو لي هذا تحدياً . . فأنا لم أشعر بمثل هذه الحيوية المثيرة منذ سنوات .

ـ أرجو أن تستمر بهذا الإحساس حين تتلقى أول استدعاء طارىء في الثالثة صباحاً.

ـ هذا سيتوقف على ما سأفعله في ذلك الوقت..

غمز لها مبتسماً فأحست بالدماء ترتفع إلى خديها، لكنها رفضت أن تنزلق معه إلى حديث خطير:

ـ أوه.. هذا يذكرني.. أستطيع أن أتدبّر لك أن تجري أول اختبار ميداني لك في نهاية الأسبوع القادم إذا أحببت.

ـ عظيم.. وكم «مرافقاً» سيكون معنا لهذا؟ الفريق كله؟

نظرت إليه مباشرة:

ـ من الأفضل أن تصدق هذا!

لكن لم يكن هناك وقت للاختبار في نهاية الأسبوع الذي تلاه.. فقد نسيت تالي أنها بداية عطلة الربيع، وكالعادة هذا جاء بأعداد كبيرة من الرحالة والمخيمين، وهذا وحده كاف.. مساء الجمعة، هبت ريح جنوبية غربية جاءت ببرد قارس، وبذل الفريق أقصى جهد محموم مرهق منذ ثلاث سنوات.

صباح السبت وقبل الفجر، انطلق الفريق في التفتيش عن زوجين شابين لم يعودا إلى مخيم «توركي كريك» في المساء، بعد خروجهما في نزهة بعد الظهر.. ومشط الفريق كل الطرقات الجبلية القريبة. ووجدهما جثوا، متجمدين حتى الموت، وعلى بعد أقل من ميل عن المخيم.. وكانت هذه بداية مؤسفة لأسبوع مرهق.. إنقاذ متسلقين بمعدات ناقصة تقيهم سوء الطقس، البحث عن رحالة لا يعرفون الكثير عن وقاية أنفسهم من البرد، البحث عن طيارين لطائرتين صغيرتين، ضاعتا في الجبال.

والذي زاد الأمر سوءاً عدم وجود الكثير من المدربين على مثل هذا البحث يستطيعون تقديم المساعدة.. فدائرة «الشريف»

والشرطة، كانتا مشغولتان في حوادث الطرقات والسائقين الضائعين.. وفرق الإنقاذ القريبة الأخرى كان لديها ما يكفيها من طوارىء. هكذا كان فريق كوتشيز في نشاط وعمل دون توقف تقريباً.. الطعام، ومعظمه من الزبدة والجبن، أو اللحم المجفف هو ما كانوا يتناولونه وهم في الطريق.. وكل من لم يستطع إبقاء عينيه مفتوحتين، كان يعود إلى المخيم القاعدة حيث يدخل كيس النوم، وينام قدر ما يشاء.

عدا عن الزوجين الشابين، وأحد الطيارين الذي تحطمت طائرته وقتل عاد فريق كوتشز بكل الضحايا سالمين، خلال هذا كله ولأنها مدربة ويلهام، كانت تالي ترافقه دائماً، مع شخص ثالث من الفريق، يعملون معاً، ويأكلون معاً، وينامون قرب بعضهم في المخيم.. وكان ويلهام متعباً جداً، ومشغولاً، حتى أنه لم يعلق شيئاً على «النوم معاً».

أخيراً خفت وتيرة الحركة المحمومة.. وذاب الثلج وعادت الطرقات إلى طبيعتها.. وبدأ السياح بالرحيل.. وفي وقت مبكر من مساء اليوم السابع، استُدعي فريق تالي إلى المخيم.. وكان فريق هارفي قد حدّد مكان الصبيين البالغين الرابعة عشرة من العمر، واللذين كان الجميع يبحث عنهما، جائعين، يرتجفان من البرد، وخائفين، لكن بصحة جيدة.. يعدها لم يرد أي استدعاء جديد.

خلعت تالي حقيبة الظهر متأوهة وتركتها تسقط عند قدميها. وقالت لجثوا وهي تتقبل القهوة منه:

ـ أتعني أننا سنعود إلى المنزل لننام؟ وفي الفراش؟ ونستحم؟ ونرتدي ثياباً نظيفة؟

سمعت ويلهام يتمتم وهو يدعك ذقنه: ونحلق.

قال جثوا بسعادة:

- أجل.. نحن بكل تأكيد نبدو زمرة من المتشردين.

برقت عيناه بالفخر، وطافتا في الفريق المرهق الذي كان معظمهم يستند إلى الأشجار، أو يجلس، أو يستلقي بين المعدّات والحبال.. ثم تنحنح:

- عمل رائع يا رفاق.. كلنا نستحق الراحة.. فلنعد إلى بيوتنا.

تذكرت تالي بشيء من الضبابية أنها تسلقت الشاحنة، وأنها كانت تجلس قرب ويلهام تجاهد في إبقاء جفنيها مفتوحين دون جدوى.. مرة وقد وقع رأسها إلى الأمام تعباً، كادت تقع عن المقعد، ثم تذكرت بضبابية أكثر ذراعين قويين تلفان كتفيها، وتشدانها بحزم على صدر مريح عريض.. سوت نفسها بارتياح عليه وهي تتنهد، تضع رأسها على السترة «النايلون» التي كانت تفوح برائحة الحطب المحروق.. وتركت نفسها تتسلل بارتياح إلى نوم عميق على كتف دافيء مريح.

* * *

٧ - أهرب منك لأنني...

بقيت تالي مستكينة هكذا للحظات طويلة، عيناها مغمضتان، ترغب أن لا تستيقظ أبداً.. تكره أن تتخلى عن الحلم اللذيذ.. ما أروع أن تحس به وهو يضمّها إليه بطريقة لا يمكنها أن تشعر بها سوى في الأحلام.

لكن النوم تلاشى وصحت، أو تقريباً صحت، وكان هناك العالم الحقيقي ليواجهها.. تحركت بتدم أو حاولت.. شيء ما كان يجثم فوق كتفها.. على الفور فتحت عينيها لتجد ويلهام مستغرقاً في النوم، يستخدمها كوسادة.. كيف حدث هذا بحق السماء؟ ما الذي حدث؟ وأين هي؟

حركت رأسها بحذر لتنظر حولها.. واضح أنهما في غرفة الجلوس في شقتها.. لقد أبعد كرسي الخيزران وطاولة القهوة جانباً ليمدد كيسي النوم على السجادة أمام الصوفا.. لكن لماذا فعل هذا؟ واضح أنه حملها من الشاحنة وهي نائمة، وآخر شيء تذكره هو أنها نامت على كتفه.. حسناً لكن لماذا ألقاها على الأرض؟ إذا كان مضطراً لأن يحملها فلماذا لم يدخلها غرفة نومها، ويضعها في السرير، و..

لا.. دعك من هذا.. إلى هنا يكفي.

إن ما فعله هو الأكثر تعقلاً.. لقد كانت غافلة عن الدنيا

كالأموات، ولا يمكن أن يكون هو في حال أفضل. كلاهما متعب، ويحتاجان إلى حمام وغيار وملابس. هذا هو أفضل ما يمكن أن يفعله.. لقد خلع سترتيهما وأحذيتهما كما وجدت حين حركت أصابع قدميها.. واستلقى إلى جانبها.. وشكراً لله أنه لم يحاول أن يقود سيارته إلى المزرعة.. وإلاّ لكان نام وراء المقود.

رفعت رأسها قليلاً تنظر إليه.. كانت ترى معظم وجهه.. واستغلت الفرصة لتدرس وجهه، وهذا أمر لم تستطع فعله وهو مستيقظ.

ابتسمت تالي لنفسها بقلق: لماذا لا يبدو كما يبدو بقية الناس وهم نيام؟ جامد الوجه.. منتفخ الأوداج.. ضعيفاً؟ لماذا لا يشخر؟ لكن حتى وهو نائم لم يفقد وجهه قوته أو ثقته بنفسه! وكانت أنفاسه هادئة منتظمة.. اللعنة على الرجل.. إنّه غير منصف في مواجهته معها!

احمر وجهها وأرجعت رأسها إلى الوراء.. لا شيء تريده من هذه الدنيا أكثر من أن يسمح لها بالبقاء معه هكذا.. وإلى الأبد.

إلى الأبد!.. يا إلهي.. وأحست إحساساً عميقاً مذهلاً من خيبة الأمل.. لقد فعلتها بالرغم من كل شيء، أحبته منذ الليلة الأولى التي رأته فيها مستلقياً في الليل المقمر البارد.. وفكرت بألم، تقاوم اندفاعاً مذعوراً للبكاء، أنها لن تجد في هذا سوى الألم.

لو كان ويلهام من الطراز الذي يتزوج، لتزوج منذ سنوات.. لكن لو لم يكن، هل يفكر بقضاء بقية حياته مع تالي بيلارد الريفية البسيطة؟

على أي حال.. بعد هذا الأسبوع الأخير سيكونان على الأقل في الطريق إلى صداقة طيبة..

هزّت كتفه:

- ويلهام.. ويلهام.. استيقظ.

تحرك دون أن يفتح عينيه، وحبست أنفاسها في حلقها وهو يشد يده حول خصرها.

حتى وهو نائم يصعب الأمور عليها؟

هزّته بقوة تحاول دون جدوى أن تتخلص منه لتجلس.. لكنه تمتم ناعساً، وعيناه مغمضتان:

- همم.. لا تتحركي.. هكذا أفضل.

- ويلهام دعني أنهض.. الوقت يكاد يصل إلى الثامنة والنصف صباحاً.. ماذا لو جاء أحدهم؟ ماذا سيظنون؟

تنهد بنفاد صبر ثم استيقظ:

- سيظنون أننا أمضينا الليل نائمين معاً.. وهذا صحيح.

لم يكن هناك مجال للشك الآن بأنه يعي أين يضع رأسه، لكنه لم يظهر أي ميل للتحرك.

- ويلهام!

أخيراً تحرك آسفاً، وجلس ليضع ذقنه على يده، نظر إلى وجهها وقال مذعوراً:

- يا إلهي.. أهكذا تبدين دائماً في الصباح؟

كالعادة نجح في إشعال غضبها.. فصاحت:

- حين أقضي سبعة أيام خارج المنزل أعمل، أجل..! كما أنك لا تبدو كممثلي السينما!

ضحك بدعك ذقنه المستطيلة:

- أنت على الأرجح محقة. لا شك أنني أبدو رهيباً.. ربما مثلك تماماً.

تمتمت وهي تتملص بعيداً عنه وتقف: شكراً لك.

استدار على ظهره يضع وسادة تحت رأسه يراقبها بارتياح.

- هل أنت غاضبة من شيء؟

ردت ساخرة:

- غاضبة! أنا؟

ابتسم:

- حسناً هذا مريح لي. كيف ستقرر من منا سيستخدم الحمام أولاً؟

قالت صارخة تركض نحو باب الحمام:

- الأمر سهل!

حتى مع عامل المفاجأة، استطاعت بصعوبة إقفال الباب وراءها.. وسمعته يتمتم بغيظ:

- هذه روح غير رياضية.. ليست غلطتي أنها تبدو مشعثة إلى هذا الحد.

حين نظرت إلى نفسها في المرآة أجفلت متألمة بقدر ما بدا عليه من إجفال لرؤيتها.. لقد كان مهذباً حين دعاها بالمشعثة. على أي حال كل شيء قابل للتصحيح.. وأدارت مياه الدوش بأقصى قوتها، تقف تحتها تتمتع بحرارتها المتدفقة، قبل أن تبدأ بغسل نفسها بالصابون وتنظيف شعرها بالشامبو.

انتهت وارتدت روب الحمام، ونادت ويلهام بأن الحمام أصبح له، جففت شعرها بسرعة إلى أن أصبح ناعماً مسترسلاً. ووضعت لمسات خفيفة من أحمر الشفاه والماكياج على خدّيها.. وأحست بالارتياح لارتداء بنطلون جينز، وكنزة زرقاء طويلة الأكمام. كانت بشرتها ناعمة كريش نعام.. ثم تنهدت بسعادة.. مع استعادتها لمظهرها الخارجي خرجت إلى المطبخ لتهتم بمعدتها. التي كانت تطالب بالطعام منذ وقت.. وكانت تفكر بالطعام الموجود في البراد منذ أسبوع حين جاء ويلهام خلفها.

قال وعيناه الخضراوان تطوفان بها بإعجاب:

- أتعرفين.. لو كنت هكذا منذ ساعة لما تمكنت من الخروج من غرفة الجلوس.. مهما كانت سرعة جريك..

شهقت تالي.. واصطكت ساقيها.. كيف يمكن لتلك الصحبة الدافئة التي طوّراها معاً أن تنقلب بسرعة إلى لعبة؟ كانت تتخيل صداقة طيبة بينهما.. لكن يبدو أن لديه أفكاراً أخرى.

قالت بعدم اكتراث قدر استطاعتها:

- كل ما أهتم به الآن هو الطعام، وأخشى أن تكون مضطراً لأن تخرج للتبضع لأجله.

- أو نخرج لتتناوله.. فندق «كوبركنغ» يقدم فطوراً رائعاً من اللحم والبيض.

أقفلت باب البراد: أنا موافقة.

فكلما أسرعا في الخروج من منزلها كان أفضل.

رفع حاجبه:

- موافقة؟ هكذا؟ دونما جدال إذا ما كنت تستطيعين تناول الفطور معي؟

- وأتخلى عن اللحم والبيض، لأجل جبن متعفن وخبز يابس، أو رحلة إلى المخزن؟ لا.. أبداً! في هذه اللحظة بالذات أنا مستعدة لتناول الطعام مع الشيطان نفسه.. وأنا لم أعن شيئاً شخصياً بالطبع.

- إذن.. بعد الفطور، لديّ فكرة عن بعض المرح الذي نستحقه جيداً.

- ماذا؟

- الطعام أولاً!

أمسك يدها يشبك أصابعه بأصابعها ويجرها عبر غرفة الجلوس:

- بعد الطعام سنتحدث بالخطط.

كانا في منتصف الطريق خارج الباب حين تذكرت تالي شيئاً.. وصاحت متأوهة بخيبة أمل:

ـ اليوم السبت الثاني والعشرين من الشهر.. دورة التدريب.. كان يجب أن نطير إلى هناك بالأمس!

ذهل ويلهام وقال مقطباً:

ـ الثاني والعشرين من الشهر..؟ حقاً؟ اللعنة! حسناً، لا عجب أننا نسينا.. يمكننا الاستفادة قدر المستطاع. الوقت متأخر لدورة الصباح.. ونستطيع الوصول إلى هناك في الوقت المناسب لدورة بعد الظهر.. حتى مع توقفنا للفطور.. فأنا لن أطير إلى أي مكان قبل أن أضع في معدتي طعاماً ساخناً. سنذهب رأساً من المطعم، فحضري بعض الملابس لليلة واحدة.

كانت تسرع إلى غرفتها عندما صاح بفكرة من غرفة الجلوس:

ـ ضعي شيئاً مرتباً في حال سنحت لنا فرصة العشاء.. هناك نزل على بعد بضعة أميال من المكان.

لحسن الحظ لم يضطرا إلى انتظار طاولة.. بعد أسبوع على طعام المخيم بدا لهما طعام الفندق رائعاً، وكانا جائعين حتى أنهما علقا الحديث إلى أن أنهيا اللحم والبيض والبطاطا المشوية على الطريقة الريفية.. أخيراً أسند ويلهام ظهره إلى الخلف وقد غطى آخر قطعة توست بمربّى التوت البري.. ثم قال متنهداً:

ـ لست أدري متى تمتعت بوجبة مثل هذه؟

تراجعت تالي بدورها إلى الوراء وقالت ممازحة:

ـ أو متى قضيت أسبوعاً أكثر إرهاقاً؟

ـ إرهاقاً؟ أنا..؟ أنا كنت فقط متعباً لأنني لم أكن أفعل شيئاً آخر.

ـ ما عنيته أنك أمضيت سبعة أيام منتجة مفيدة.. تنقذ حياة

الناس.. و.. لقد فعلت هذا بشكل رائع جداً.

عقد حاجبيه بسخرية:

ـ أنت محقة! لم أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية! يا إلهي، إذا شاع الخبر فستفسد سمعتي جداً. ماذا سيظن الناس بي؟

قالت ضاحكة:

ـ اطمئن! إن سرك بأمان. لن يصل إلى «نيويورك تايمز».. ولا أظن أن الكثير من أصدقائك يقرأون «كوتشيزبند أوبزرفر».

وضعت كوبها من يدها وأكملت:

ـ حسناً.. هذا يجب أن يكفيني حتى العشاء.

ـ أو الغداء على أي حال.. أوائقة من هذا؟

ـ لدي تجارب!

رفع يده كشرطي المرور ضاحكاً:

ـ هدئي من غضبك تالي.. كنت فقط أبدي إعجابي بك، ولم أكن أهاجمك.. من الرائع تناول الطعام مع امرأة لا تلتزم بحمية خمسمائة كالوري في اليوم من الجبن البلدي واللفت. كائناً ما تكون نوع حميتك أتمنى أن تلتزمي بها!

خرجا من المطعم وبدت تالي كأنها تطوف فوق غيمة بيضاء ولم تعد إلى الأرض إلا حين توقفا في مزرعة ميلورد، ليأخذ ويلهام بعض ملابسه، ويتفقد عمّال المزرعة. وكان هناك رسالة من جيل كرافتون تنتظره على لوحة خاصة قرب الهاتف.

قرأها ويلهام وعضّ شفته:

ـ الدورة ألغيت.. يبدو أن جيل كان مشغولاً مثلنا خلال العاصفة ولم يستطع التحضير لها.. لا تظهري خائبة الأمل هكذا. لن يمنعنا شيء من السفر.. في الواقع هذا ما كنت سأقترحه.. قضاء نهاية الأسبوع في «يوزيمايت».. هل ذهبت إلى هناك يوماً في

الربيع؟ الشلالات تكون في أوج تدفقها!

صحيح أنها أحبطت للحظات، لكنها الآن تحس بالإثارة تقفز داخلها.

ـ في الواقع.. أنا لم أذهب إلى هناك إطلاقاً.. لكن..

ـ يمكننا أن نتزلج، هناك منحدرات في الريف ولا تقولي لي إنك لا تعرفين التزلج.

التزلج في جنوبي أريزونا ليس أمراً سهلاً.. لكن هذا بالطبع لا يظهر لرجل مثل ويلهام القادر على الطيران ستمائة ميل لمجرد إرضاء المزاج.. وقالت مدافعة:

ـ حسن.. أنا لا..

ـ ما من مشكلة، سأعلمك. ولا تقولي لي إنك لا تملكين ما يناسب من ثياب.

ـ لكنني.. لا أملك شيئاً.. كيف يمكن لي أن..

ـ ولا تقولي لي إنك لا تستطيعين تحمل ثمنها.

ـ حسناً.. كف عن القول لي ما لا أستطيع قوله.. على أي حال لا أستطيع! وإذا..

ـ لأنني دعوتك، من الطبيعي أن أدفع كل المصاريف. وكما سبق وقلت لك.. أنا لا..

قاطعته بحدّة:

ـ لا أقبل الرفض كردّ.. أعرف.

أقفل سحاب حقيبة كتف جلدية، وقال:

ـ عظيم.. كل شيء جاهز.

ـ حسن جداً.. لكن يجب أن نصل إلى تفاهم على أشياء محددة..

ـ بالتأكيد.. سنفعل هذا ونحن في الطريق.. فلنذهب الآن ولا

مزيد من الجدال.. افعلي فقط ما أقوله لك.

قالت متصلبة:

ـ سيد غلايمور.. هل قال لك أحد يوماً إنك تجسد خصائص أسوأ الرجال المسيطرين؟

ضحك:

ـ أجل.. أنت.. لكن مع استمرار إطرائك لي، كيف أتذمر؟

* * *

صاح مدير قسم الاستقبال بابتسامة عريضة.

ـ سيد غلايمور! يسعدني أن أراك مجدداً!

اقترب منه وهمس في أذنه وكأنه يتآمر:

ـ قرأت عن حادثة تحطم طائرتك في نيو مكسيكو..

ـ في أريزونا.

ـ أجل، بالطبع.. أريزونا.. في جبال «تشوكتاو»..

ـ تشيركاهاوا.

ـ آه.. أجل.. هكذا تماماً.. حسناً، أنا سعيد لرؤيتك في صحة جيدة سيدي.

ـ شكراً لك ألفونس. أتظن أنك قادر أن تجد لنا غرفتين؟

ـ لأجلك سيد غلايمور؟ بكل تأكيد.. «كونتن لودج» يشرّفه دائماً أن تكون من ضيوفه.

نظر ويلهام إلى تالي وغمزها.. خلال الرحلة أظهرت دهشتها حين قال لها إنه لم يتصل ليحجز في فندق «باوسميت تالي» القديم.. وسألت:

ـ أليس ذلك المكان دائماً محجوزاً؟ لا يمكنك الدخول هكذا والحصول على غرفة.. أتقدر؟

ـ سنجرب حظنا.

وتساءلت تالي، أي نوع من الاستقبال كانت ستحصل عليه من ألفونس لو وصلت لوحدها دون حجز.

أخذ ألفونس يتفحص قائمة الحجز..

ـ دعنا نرى الآن.. آه.. قلت إنك تريد غرفتين، لك وللسيدة الشابة؟

والتقط قلمه ينظر إلى ويلهام المقطب حيرة:

ـ بالتأكيد.. هل هناك شيء آخر؟

تنحنح الفونس.

ـ عظيم جداً سيدي.. لدي الشيء المناسب تماماً.. جناحان متصلان، يطلان على منظر رائع.

ـ إحداهما ستكون ممتازة لي.. لكن ميزانية الآنسة بيلارد صغيرة..

أبقى وجهه ثابتاً، مع أن تالي كانت تعرف جيداً أنه يجد الموقف مضحكاً، وأكمل:

ـ ربما إحدى تلك الغرف القديمة البسيطة، والحمام في آخر الرواق.

كان يبالغ قليلاً.. لكن تالي لم تكن لتتذمر.. فقد كان هذا جزءاً من التفاهم الذي أصرّت على الوصول إليه.. خطته الرئيسية كانت لا تقاوم ولا يمكن رفضها. لكنها وافقت على أن تأتي معه إذا ما سمح لها بأن تدفع أجرة منامتها، موضحة أنها «منامة منفصلة».

خاطبت تالي الفونس:

ـ غرفة قديمة ستكون رائعة. أمّا المنظر فموقف السيارات الخلفي يكفيني.. أستطيع الخروج حين أريد التفرج على «هاف دوم».

حاول الفونس، دون نجاح، أن يخفي فضوله وعاد إلى لائحة

الحجوزات، ونظرة ألم على وجهه.. ثم قال بارتباك:

ـ أظن أننا نستطيع تقديم شيء أفضل من هذا لصديقة السيد غلايمور.. و.. وبأجر اقتصادي جداً.

أخذ مفتاحين من اللوحة وراءه، وأشار إلى شابين ينتظران.

لحق ويلهام بأحد الشابين قائلاً:

ـ سألقاك هنا بعد نصف ساعة.

وسارت تالي عبر ممرّ ضيّق إلى يمين مكتب الاستقبال.

دهشت تالي لغرفتها الصغيرة، بستائرها الحمراء والصفراء المبهجة، ومفرش السرير المماثل، كانت غرفة فتاة صغيرة، برّاقة، نظيفة، ومنعشة. المنظر عبر النافذة الزجاجية، كان يشمل فعلاً زاوية من موقف السيارات الخلفي.. لكن معظمه كان لأرض مغطاة بالثلج وغابة صنوبر، وسهل يضج بأصوات الطيور الصادحة والسناجب الصغيرة..

التفرج على صورة جميلة، أو القراءة عن وادٍ كبير أخضر طوله سبعة أميال، وعرضه ميل، وعمقه ثلاثة آلاف قدم، ورؤوس حجرية غرانيتية شاهقة، وقمم مرتفعة، وشلالات تندفع من القمة حتى أسفل الوادي هو أمر. لكن أن يرى المرء كل هذا فأمر آخر تماماً، وكذلك يحس بها.. فشلالات يوزميت كانت ترسل صوتاً راعداً يبعث الرعب يسمع به المرء أينما كان في الوادي.. ولم يخبرها أحد يوماً بمثل هذا.. ولم تكن قادرة على التصديق.

ولماذا لا تكون سعيدة حقاً؟ لديها يوم ونصف هنا في هذا المكان الرائع، وحين ستغادره سيكون ذلك في رحلة طائرة رائعة أيضاً.. ولن ترضى بعد اليوم بمقعد على ارتفاع ستة أميال في طائرة تجارية، بعد مرورها في طائرة صغيرة فوق الأنهر والغابات على ارتفاع أربعة آلاف قدم فقط.. ! الأمر لا يصدق!

فتحت حقيبتها الصغيرة، وأخرجت كنزة بسيطة وجينز، وحذاءً رياضياً سميك.. لن تعطيه الانطباع أنها تشجعه على الاهتمام بها.. مع أنها لا تملك شيئاً يماثل تلك الكنزات السويدية والاسكتلندية أو لباس التزلج الذي ترتديه النساء المتسلقات في البهو الخارجي.. أين أنت من هذه النساء الأنيقات؟ بالتأكيد لا ترى مثلهن في «كوتشيزبند»!

حين خرجت إلى البهو شاهدت ويلهام على الفور قريب جداً من إحدى هؤلاء النساء الأنيقات الجذابات يترنّح رأسه بضحكة حميمة مغرورة.. وغشي بصرها بصدمة غير متوقعة من الغيرة الفجة القاطعة، عصرت قلبها وكأنها قبضة حديدية باردة.

أمسكت نفسها قبل أن تستدير على أعقابها وتعود إلى غرفتها. بماذا تفكر بحق السماء؟ كيف تغار على رجل تحاول التقليل من اهتمامها العاطفي به؟ أوه.. يا إلهي! المعركة مع مشاعرها تزداد صعوبة وإرباكاً مع الوقت.

كان ويلهام، لا يزال يضحك على ما يمكن أن يكون جرى بينه وبين المرأة؛ عندما التفت إلى تالي قائلاً:

ـ آه تالي.. بدأت أتساءل عما جرى لك.

أوه.. بكل تأكيد، أستطيع أن أرى كم أنت قلق!

أكمل بطريقة رسمية:

ـ ناتالي بيلارد.. ديبورا دونيڤر.

رسمت تالي ابتسامة على وجهها متمتمة بشيء، ثم تفحصت المرأة الطويلة النحيلة بشعرها الأحمر اللمّاع، كأنه خارج من دعاية للشامبو.. وكرهتها على الفور.

ابتسمت ديبورا دونيڤر:

ـ ويلهام أخبرني القليل عنك.. يبدو أنك فعلاً نجحت في دفعه

إلى القيام بعمل مفيد في الأسبوع الماضي.. وكانوا يقولون إن هذا مستحيل، أنا حقاً مسرورة بمعرفتك..

غير معقول! ديبورا دونيڤر لطيفة!

ردّت الابتسام لديبورا.. ابتسامة حقيقية هذه المرة:

ـ وأنا مسرورة بمعرفتك.. هل كنت في الخارج على المنحدرات؟

وأشارت إلى بذلة التزلج الزرقاء التي كانت ترتديها.

ـ طوال اليوم.. هل تعرفين التزلج تالي؟

ـ لا.. أخشى أن لا أعرف.

قال ويلهام:

ـ ولا تدعني أعلمها.. لقد عقدنا تفاهماً.

ورفع حاجبه.. ضحكت ديبورا.

ـ لا ألومها.. أنت لن تعرف منحدراً مناسباً لمبتدىء حتى ولو رأيته..

التفتت إلى تالي:

ـ سأكون سعيدة أن أعطيك بضع دروس لتبدئي إذا رغبت. لقد علّمت أخواي الصغيرين وأعرف كم يبدو الأمر مخيفاً في البداية.

ـ هذا لطف كبير منك.. لكنني لا أظنها رياضة تناسبني..

وصمتت بأسف، فلولا خوفها لما فكرت برياضة تروق لها أكثر.. وقالت ديبورا:

ـ حسناً، دعيني أعلم إذا غيّرت رأيك. يجب أن أذهب الآن.

ابتسمت لتالي وضغطت ذراع ويلهام مكملة:

ـ من المفترض أن أقابل روان في الخارج..

سأل ويلهام باهتمام:

ـ روان؟ وهل روان هنا؟

ـ أجل.. سنذهب إلى منحدر «بادجرباس».

ـ حسناً.. أراكما فيما بعد.

قالت تالي عبر شفتين منخشبتين:

ـ إنها لطيفة جداً.

أجاب ويلهام وهو مستمر في النظر إلى المرأة بمحبة:

ـ أجل.. لطيفة جداً.. حسناً.. ماذا ترغبين في أن نفعل؟

ـ ويلهام لا داعي لتشغل بالك بي.. إذا أردت الذهاب للانضمام إلى أصدقائك المتزلجين السناجب فوق، فاذهب.

رفرف عينيه دهشة:

ـ المتزلجين السناجب؟

تمتمت:

ـ أوه.. اسمع.. كل ما أعنيه هو أنني أستطيع أن أسلّي نفسي تماماً، لذا اذهب للتزلج إذا كان هذا ما تريد.

ضحك ويلهام:

ـ حسناً.. ولماذا أنت غاضبة؟

كيف تشرح له شيئاً هي نفسها لا تفهمه؟

إن ما يغضبها هو الهوة التي بين عالمها الضيّق، وعالم الثقة السهل الجميل الذي تسكنه أمثال ديبورا دونيڤر بكل عفوية.. لكن ألم تكن تحاول أن تجعله يرى هذه الهوة منذ التقت به؟

رفع رأسها بيده كي تنظر إليه:

ـ هيا الآن.. ما الذي يزعجك؟

كالعادة، النظرة الصافية المحطمة للقلوب، الباردة والنظيفة كالمياه المثلجة التي تجري عبر الوادي، جرفت كل شيء من تفكيرها، كل شيء ما عداه. فجأة لم تعد غاضبة بل فرحة جداً أن يكون واقفاً الآن إلى جوارها، مسرورة أن تكون في «يوزيمايت»،

مسرورة أن تكون حية.

ـ لا شيء يزعجني حقاً.

بدا عليه الارتياب:

ـ أترغبين في شيء تشربه في الصالون؟

هزت رأسها:

ـ أيمكن أن نخرج؟

ـ بكل تأكيد، ما رأيك بنزهة حول الوادي في الباص؟

أشار إلى باص من طبقتين يقف خارج الفندق.. كان مليئاً تقريباً بالمتزلجين الذين يستقلونه للوصول إلى نقطة الانطلاق التي يريدونها نحو المنحدر الذي اختاروه.. لكن بضع متفرجين متهورين كانوا يجلسون في القسم العلوي الذي لا سقف له.

قالت بحماس:

ـ أرغب في هذا! لكنني أريد الجلوس فوق، في العراء، لأستطيع أن أرى كل شيء!

قال:

ـ سنتجمد برداً.. لكن لا بأس.. اذهبي وأحضري سترة، سأطلب من السائق الانتظار.

كانت المقاعد الأمامية على السطح فارغة كما أملت تماماً، فجلست تالي مطمئنة، تندس بويلهام دون أن تستند إليه فعلاً.. وعلى الفور انطلق الباص في طريقه.

مرت بضع دقائق دون أن يتكلما.. وجلست قريبة منه ما وسعها، رأسها إلى الأعلى، عيناها تتنقلان من جهة إلى أخرى، تتأمل جدران الوادي المكللة بالأبيض.. الصنوبر المغطى بالثلج يلمع تحت أشعة شمس بعد الظهر الذهبية. غدران الماء المتسللة إلى كل مكان، كانت تسيل، ببطء كأنه الحلم، من أعلى قمة بيضاء

للجبة إلى الوادي الذي يكاد يخلو من الثلج.

تمتمت:

ـ هناك الكثير من الشلالات. إنها في كل مكان.. لم أكن أعرف هذا.

ـ معظم الناس لا تعرف ذلك. إنهم يأتون في شهري آذار ونيسان حين يصبح جافاً، ما عدا الجبل الأكبر.

ارتجفت، ربما من البرد، وربما من السعادة.. وربما من شيء آخر..؟

سألها: بردت؟

كادت تقول لا.. لكنها أدركت أنّها لو قالت نعم إنها فعلاً بردت فسيلفها بذراعه فعلاً.. فتمتمت:

ـ همم.. جداً.

وصح ما توقعت، لف ذراعه حول كتفيها وجلبها إليه قليلاً:

أفضل؟

ـ أجل.

آه.. لو أن الأمور تبقى هكذا إلى الأبد.. الهواء البارد المنعش، الغدران السحرية، القرب من ويلهام.. وتنهدت بكسل.. ألم تستيقظ هذا الصباح.. وتمنّت كذلك أن يستمر إلى الأبد؟ لقد كان ذلك جميلاً..

قال:

ـ أين هي أفكارك؟

ـ همم؟

ـ كنت تبتسمين.. بماذا كنت تفكرين؟

ـ كنت أفكر ما أروع..

استقامت في مقعدها، ورفعت رأسها تستعيد توازنه على الفور،

وأكملت بسرعة:

ـ ما أروع المكان هنا.

نظرت إليه بخوف، تتساءل كم تمكن من أن يقرأ من ابتسامتها اللاواعية.. وقال ويده لا تزال مسترخية حولها على ظهر المقعد:

ـ أوه.. هل هذا ما كنت تفكرين به حقاً؟

ـ أجل.. بالطبع.. ماذا كنت تعتقد؟

اتسعت بسمته:

ـ أنا؟ لا شيء.

وصل الباص إلى إحدى محطاته، ونزل منه عدد من المتزلجين إحداهن كانت ينفس جمال ديبورا دونيفر لكن شعرها كان فاحماً، وبشرتها عاجية ناعمة، رفعت رأسها بجرأة إلى ويلهام وكأنها أحست بوجوده.. ابتسمت له بدعوة ظاهرة.. كانت الدعوة واضحة إلى درجة أحرجت تالي. وردّ ويلهام الابتسامة ثم انطلق الباص والمرأة تنظر خلفه.

قالت غاضبة:

ـ صديقة قديمة أخرى؟

ـ لا.

ـ أوه؟ هل هكذا تستجيب نساء غريبات لك عادة؟

ـ أجل.. حسناً.. ربما ليس دائماً.

قالت ببرود:

ـ هذا لا شك أمر لطيف بالنسبة لك..

ـ ليس إلى هذه الدرجة.

استدارت تنظر إليه بدهشة.. كانت عيناه تنظران إلى الأمام تركزان مباشرة على القمم الهرمية الثلاث المسماة «الشقيقات الثلاث» التي تبدو الآن إلى اليسار.

سألها بنبرة طبيعية في صوته:

ـ أخبريني ما رأيك بديبورا؟

خفق قلبها وقالت بحذر غير واثقة إلى أين يقودها:

ـ لقد أعجبتني..

ـ حقاً؟ بالرغم من دعوتك لها باسم السنجاب المتزلج؟

احمر وجه تالي وانزعجت.. وقالت:

ـ أعتقد أنها متزلجة جيدة.

ضحك:

ـ متزلجة جيدة؟ لو كنت تتابعين أخبار التزلج لتذكرت اسمها.. لقد كسبت المركز الثاني في التزلج النسائي في كأس العالم في «غرينوبل» السنة الماضية.. ومن اللطف الكبير منها أن تعرض عليك تعليمك.

خجلت تالي من ردة فعلها ضد المرأة التي حاولت أن تكون لطيفة معها.. لكنها كانت تتمنّى من كل قلبها لو أنها الآن في «غرينوبل» أو حتى في مكان أبعد..

أجابت:

ـ لطف كبير.. أتعرفها منذ زمن بعيد؟

لمعت عيناه بخبث:

ـ أوه.. منذ ثلاث أو أربع سنوات.. إنها شخصية رهيبة.. عادة نلتقي كثيراً خلال موسم التزلج.

لو عرف ويلهام أنها «حردانة» فهو لم يظهر معرفته.. وتابع حديثه بخفة:

ـ إنها فعلاً مميّزة.. أليست كذلك؟ جميلة، رياضية عظيمة، مليئة بالمرح.. ذكية..

قالت تالي باكتئاب:

ـ ومتواضعة.. دون شك.

فكر قليلاً ثم هز رأسه:

ـ وهذا أيضاً.. لم أفكر به من قبل.

تحركت يده من خلف كتفيها تتلاعب بخصل من شعرها، بعثرتها الريح.. وأكمل يقول:

ـ لست أدري لماذا.. لكن ينتابني انطباع أنك غاضبة مرة أخرى.. ما الذي حدث؟

ـ لا أعرف لماذا.. ينتابك التفكير بأنني غاضبة.. لأنني لست هكذا.

ـ آه..

ـ أنا فقط.. حسناً، بما أنها كاملة الأوصاف هكذا، لا أستطيع إلاّ أن أتساءل لماذا لم تختطفها منذ زمن بعيد.

ـ أتعرفين.. كنت سأفعل هذا لكن كان يمكن أن أزعج روان.

ـ روان.. أوه الصديقة التي تتزلج معها.. لا. أنت بالتأكيد لا ترغب في إزعاجها.

ـ من الأفضل أن تصدقي أنني لا أريد إزعاجها.. روان طولها يصل إلى المترين ووزنها يزيد عن المئة كيلو غرام.

فغرت تالي فمها.. فأكمل يشرح:

ـ روان رجل وليس امرأة، وهو ليس صديق ديبورا بل زوجها.

امتلأت عيناه بابتسامة ناعمة ساحرة تشابكت مع عينيها.. وسأل بنعومة:

ـ والآن.. ما رأيك بهذا؟

أحست وكأن شريطاً كان يعصر قلبها قد انحل فجأة وأخذت نفساً كاملاً لأول مرة منذ بضع دقائق.. وصاحت ساخطة مع ارتياحها:

ـ أيها.. الجرذ.. لقد كنت تخدعني طوال الوقت!

ضحك:

ـ أخدعك؟ حسناً.. ربما قليلاً.

ـ قليلاً!

ورفعت قبضتيها المشدودتين دون أن تعرف ماذا ستفعل بهما، لكنه أمسك معصميها بسهولة وهو لا يزال يضحك وأنزل يديها إلى حجرها.

ـ كنت أثبت فكرة.. لكلينا.

ـ أية فكرة؟

ـ أنك تغارين عليّ.

ترك معصميها وأمسك يديها:

ـ وهذا دليل رائع في الواقع؟

ـ لا أظنه كذلك أبداً.. بل هو دليل سيء.. دليل سيء.. دليل رهيب..

أبطأ الباص ليتوقف في قرية «كوري» وباندفاع مفاجيء سحبت يديها منه، واندفعت تنزل السلم المعدني لتخرج من الباص، وأخذت تركض وسط ذهول الركاب والسائق.. وذهول وبلهام كذلك.. وصلت في الشارع قبل أن يمسك بها.

ـ تالي..

حاولت التملص منه دون وعي، لكنه ضمّها إليه بقوة.. وبشيء من اليأس.

للمرة الأولى لم يفعل سحره فعله.. فبكت وأشاحت برأسها عنه، تلوي وجهها بين يديه.. وقال بوجه يجتاحه القلق:

ـ تالي.. ما الأمر؟

صاحت من خلال دموعها:

ـ أوه.. ويلهام، ويلهام.. ألا ترى؟ هذه مجرد لعبة بالنسبة لك.. رحلة غرور.. لكن بالنسبة لي..

نظر إليها غير مصدق:

ـ رحلة غرور؟ أهذا كل ما تظنينه بي؟

مسحت عينيها:

ـ حسناً، ربما أكثر.. أعترف أن هناك تجاذباً بيننا..

عادت الابتسامة إليه:

ـ هذا اعتراف خطير منك.

ـ لكنني.. لست معتادة على مثل هذا مثلك.. لا أستطيع أن أقيم علاقة مع رجل ثم أنساه.. كما تستطيع أنت..

ـ أعتقد أنني سأواجه وقتاً أصعب من وقتك.. نسيان علاقة مع رجل!

ابتسمت بضعف رغماً عنها، فأعطاها منديلاً:

ـ هكذا أفضل.. والآن.. جففي دموعك ودعينا نسير.

أطاعته دون كلام، وبعد سيرهما لبضع دقائق قال:

ـ أتظنين حقاً أنك تمثلين لي رحلة غرور وعلاقة عابرة؟

تابعت سيرها لا تعرف بماذا تفكر، وأكمل:

ـ إذا كان هذا هو ظنك.. فإذاً تعتقدين أنني أمضي كل هذا الوقت والأسابيع، كل هذا الوقت..

كانت تصدم دائماً حين تراه في عوز للكلام.. فسألت بفضول حقيقي:

ـ تمضي كل هذا الوقت.. ماذا؟

تأوه: أتودد إليك

ودسّ يديه في جيبيه، فتجمدت مذهولة:

ـ تتودد إليّ؟

ـ حسناً.. لا داعي لأن تصيحي هكذا..

أمسك ذراعها وجرّها لتسير مجدداً. فتحركت دون مقاومة مكملة بصوت متحشرج:

ـ تتو.. تتودد إليّ؟ أتعني أنك.. تريد.. أنك..

وجفت الكلمات.. لا.. هذا مستحيل.

قال دون أن ينظر إليها:

ـ إنني أحبك؟ إنني أريد الزواج منك؟ أهذا ما تعنين أن تقولي؟

لكنها كانت خائفة أن تقول شيئاً. كل هذا مجرد حلم آخر، لو تكلمت فسينتهي.. فهزت رأسها بالموافقة. توقفا عن السير ينظران إلى بعضهما تحت ظليلة متطاولة من الصنوبر والسرو.

استدار وبلهام إليها يراقبها بشغف، بطريقة لم ينظر إليها بمثلها من قبل.

ـ الرد على سؤالك الأول: نعم.. والردّ على الثاني أيضاً نعم.

نظرت تالي إليه وقد اتسعت عيناها تعجباً.

ـ أنا.. لا أكاد أصدق أننا نتحدث هكذا.

ارتاح وجهه فجأة:

ـ ولِمَ لا؟ اسمعي.. لو كان كل ما أريد هو علاقة عابرة معك، صدقيني، أعرف طرقاً أسرع بكثير مما أحاول أن أفعل..

وهز كتفيه.. كانت تالي لا تزال تحاول معرفة ما يجري حقاً..

ـ أهذا ما كنت تفعل؟

ضحك:

ـ من بين كل النساء في العالم اللواتي يتلهفن إلى فرصة الزواج مني، فأنا أتمتع بكل المؤهلات المطلوبة: غني، كريم، ضخم.. وقعت في حب فتاة متعلقة بالتفاهات..

ضحكت:

ـ لكنني لم أصدق أبداً.. لم يخطر ببالي أنك تفعل شيئاً سوى السخرية.

ـ حتى حين لم أستطع إلا أن أقلق عليك طوال الوقت؟ أستشيط غضباً حين أتذكر أنك سرت لوحدك إلى منزلك أول ليلة؟

ـ حسناً.. يجب أن أعترف أن الأمر بدا لي غريباً..

عادا إلى السير مجدداً ببطء، ثم قال:

ـ كان أمراً غريباً على أي حال.. أنا عادة لست من النوع الذي يميل إلى الحماية.. لم أشعر قبلاً بأي شيء مثله نحو امرأة.. وكل هذا بالرغم من أنك في الواقع أكثر الناس منافسة لي.

ـ حقاً؟

أمسك يدها وتابعا السير:

ـ حقاً.. تالي.. أنا لم أعد كما كنت منذ سمعت صوتك يصلني من قلب الظلام يقول لي أن أصمد.. أتعرفين، لقد أعطيتني سبباً لأعيش من أجله.. سبباً لأنظر إلى حياتي وأرى كم كانت لا معنى لها.. أحتاجك تالي.. لكل ما يحتاجه الرجل من امرأة.

توقفا مجدداً في ممرّ هادىء، أمام تزايد عتمة المغيب، ونظرا إلى عيني بعضهما.. ظنت تالي أن قلبها يكاد يطير فرحاً.. ووضع وبلهام يديه على جانبي وجهها.. ثم ضمها بين ذراعيه كما لم يفعل من قبل.. بنعومة وحنان وحذر واحترام.. وكأنها منحوتة خزفية سريعة الكسر لا تقدر بثمن.

* * *

٨ ـ نار أصبحت جليداً

أخذت تالي تمشط شعرها ببطء، تنظر إلى المرآة دون أن ترى شيئاً، تحاول أن تضع ما يجري لها في إطاره الصحيح. منذ مدة، قرأت مقالة عن أناس كسبوا أوراق «يانصيب» بمليون دولار.. وأدهشها أن تعرف أن كلاً منهم انتهى به الأمر لأن يصبح أقل رضى وسعادة مما كان عليه من قبل.. فالثراء المفاجىء قطعهم عن أصدقائهم القدامى، وجعل من الصعب عقد صداقات جديدة حقيقية.. هكذا لم يعودوا منسجمين مع أي كان.

حسن جداً.. وقوع ويلهام غلايمور في حبّها، ورغبته في الزواج منها، كان يشبه إلى حد بعيد كسب ورقة يانصيب.. لم تكن لتحلم أن شيئاً كهذا سيحدث لها، ولو حلمت لكان لديها العقل السليم أن لا تتمنى حدوثه.. لكن عدم تمنّي شيء أمر، ورفضه حين يعرض عليك أمر آخر. إنه فعلاً يحبها.. والأمر ببساطة خيالي جداً! لا زالت غير قادرة على استيعابه.

وضعت فرشاة الشعر من يدها على طاولة الزينة، ونظرت بشدة إلى نفسها في المرآة. إنها لا تبدو كامرأة تلقت لتوها عرض زواج من رجل تحبه أكثر مما تحب أي شيء في العالم. كان لها نظرة ضائعة مضطربة في عينيها، بشرتها محمرة، وفمها مرتجف.

الحقيقة أن تالي لم تكن تعرف ما تريد أن تفعل.. أوه.. ليس

لديها أي شك في مشاعرها نحوه، وكم تريده بائسة.. مع ذلك، فكرة الزواج منه...

كانت قد صدمته فعلاً حين طلبت مهلة للتفكير بالأمر، هذه الفكرة جاءت بابتسامة صغيرة إلى شفتيها.. لم يلزمها أكثر من خمس ثوانٍ بعد احتضانه لها لتعترف دون تفكير بمقدار حبها له. وتقبل هو هذا، دون أية دهشة، فكأن كل شيء متفق عليه. لكن حين بدأ يتحدث عن شهر العسل قاطعته، وقالت له إنها ليست متأكدة بعد من كل شيء.. وتريد بضع ساعات لنفسها، ثم تعطيه الرد عند العشاء.

لكن بقي هناك سؤال كبير.

تأوهت إلى صورتها..

ـ كم كنت بلهاء لوقوعي في حبه!

تساءلت في نفسها عن ردّة فعله لشرطها الذي ستطرحه عليه الليلة.. فبدون موافقته على هذا الشرط لن تستطيع الزواج منه، لن تستطيع!

يجب عليه أن يعدها بأن يتخلّى عن تصرفه المتهور في الحياة، عليه أن يتوقف عن المخاطرة لأجل المخاطرة فقط.. صحيح أنها لم تكن مرتاحة لفكرة أن تخبر شخصاً آخر كيف يدير حياته، لكنها ببساطة لا تستطيع مواجهة التفكير بسنوات تجلس فيها لوحدها تتساءل عمّا إذا كان قد وقع عن جبل يبلغ علوه مئتي ألف قدم، أو أنه غرق في مركبه المخصص لشخص واحد في بحر «قزوين»، أو ما إذا كان قد نفد بجلده من صبادي الرؤوس الذين يلاحقونه في الأدغال.

استدارت عن المرآة منجهمة، وتناولت ثوبها.. مع بهرجة ألوانه، وجمال تفصيله، لم تستطع أن تشعر سوى أنها ذاهبة إلى

جنازة. ويلهام ليس رجلاً من النوع الذي يترك الآخرين يملون عليه أي شيء.. فهل من الممكن أن يوافق على شروطها؟ وإذا لم يفعل فهل ستكون لديها القدرة على رفضه؟ إنها تشك في هذا كثيراً.

هزت رأسها بقلق تعي الموقف المتأزم الذي تجد نفسها فيه. من كان يظن أن إعلاناً للحب، وطلب زواج من رجل تتوق لتعيش معه، سينتهيان بمزاج عكر هكذا؟!

تشنج عنقها بتوتر.. وسارت عبر الممر الضيق نحو البهو، بحماسة الديك الرومي المتجه إلى المسلخ.

راقبها ويلهام قادمة نحوه، عيناه تلمعان إعجاباً لم يزعج نفسه أن يخفيه.. وارتفعت معنوياتها.. يمكنهما أن يتكلما عن الزواج فيما بعد.. ففي هذه اللحظات مجرد أن تكون معه هو كل شيء.

تمتم تحيته بإعجاب، ولو أنه أمضى عشرين دقيقة يمدحها، لما كان أكثر صدقاً، ولما أسعدها أكثر.

قال:

- إذن.. ما هو الرد؟ أم تريدينني أن أركع على ركبتي؟

وضع يدها في ذراعه، وكالعادة أرسلت لمسته لها تياراً كهربائياً ارتج في داخلها.. وقادها نحو مدخل المطعم.

أعاد السؤال.

- حسن جداً؟ هذه الإثارة سترهق أعصابي لو استمرت أكثر من هذا.

قالت تالي ببطء:

- ويلهام.. أنا.. لا أكاد أعرف عنك شيئاً.. ما عدا بالطبع أنك تحصل على ما تريد دائماً..

وصل كبير السقاة:

- سيد غلايمور! كم أنا مسرور لرؤيتك! طاولتك المعتادة؟

- أجل، شكراً لك جان.

لم تستطع تالي إلا أن تبتسم.. بكل تأكيد يجب أن يكون ويلهام على معرفة تامة بكبير سقاة «الفاردن روم» في «تولمان لودج».. وبالطبع ستكون طاولته المعتادة في انتظاره، مع أن المطعم كان مزدحماً وهو بالتأكيد لم يحجز.. أهكذا هو الأمر بالنسبة له في كل منتجعات العالم؟

أجلسها جان بكل احترام، ثم انحنى يعطيهما قائمة الطعام، ويقول مترددا:

- أترغبان في الطبق اليومي.. أم يرغب المسيو أن أقترح..؟

- عظيم جان.

بدا على جان السرور..

- أوصي بحساء «الجرجير» كبداية يتبعه الكركند المسلوق مع...

قاطعه ويلهام:

- كل ما تظنه الأفضل جان.. نحن بين يديك.

تراجع هنري يشرق بالسعادة.

خطر ببال تالي، لو حدث ما يشبه المستحيل ووافق ويلهام على شروطها، قد تضيف أمراً آخر بسيطاً، هو أن يثق بذكائها لتقرر بنفسها ما تريد أن تأكل.. الليلة لا يمكنها أن تنزعج من هذا، فلا شك أنه استعجل الطلب لأنه يريد أن يتكلم.

نظر إليها بعينين كئيبتين وقورتين:

- تالي.. سوف تتشارك حياتنا من الآن وصاعداً.. لذلك أريد أن أكون صريحاً معك حول نفسي.. ما تظنينه بي خاطىء.

- ويلهام.. تذكر أنني لم أقل بعد إنني راغبة.. ماذا تعني أن ما أظنه بك خاطىء؟

تلاعب بكوب شرابه، قلق على غير عادته:

ـ أنا لا أحصل دائماً على ما أريد.. وأنا لم أحصل على الشيء الذي أردته من حياتي.

سألت بصوت منخفض:

ـ أكانت.. امرأة؟

بدا وكأنه يخرج من ذكريات مفاجئة، ونظر إليها بصرامة:

ـ ما هو الذي كان امرأة؟

ـ الشيء الذي أردت من حياتك؟

ابتسم ابتسامة كانت شبحاً لابتسامته المعتادة:

ـ يا لغرور النساء! لا.. في الواقع.. لم يكن امرأة.. فأنا لم أعان من مشكلة في هذا الاتجاه.. بطريقة ما كلفتني المأساة البائسة خطيبتي.. لكن هذا كان مجرد حادثة.. حقاً.

ـ ما هي تلك المأساة؟

ـ ثقب طبلة أذن.

كانت تالي على أهبة الضحك.. كانت تتوقع سماع سرّ رهيب هائل.. لكن «ثقب طبلة أذن»؟ صحيح أن المرء لا يتمتع بهذا لكنها ليست نهاية العالم.. ولحسن الحظ لم تضحك، لأن عبوسه ولمعان مفاجىء في عينيه أوقفاها.

رفع رأسه بغضب:

ـ «ثقب طبلة أذن» سخيف لعين.. أحياناً لا أستطيع تصديق أن شيء بهذه التفاهة قد يقف بيني وبين كل شيء عملت لأجله.. وحلمت به..

لانت نظرته لتقطيبتها المحتارة، وابتسم مجدداً:

ـ أتعلمين.. لم يجعلني أحد أتكلم عن هذا من قبل.. لذا أعرف أنني لا أعبر عما في نفسي بوضوح.. أترين، كنت سأتبع

تقاليد أسرة غلايمور لأكون طياراً.. أعني طياراً محترفاً.

احتسى القليل من عصير الكرز، وأكمل:

ـ ويا له من تقليد.. مع كل المال الذي لدينا لطالما تمكن أفراد عائلتي من فعل الكثير مما يريدون. جدي كان طياراً في الحرب العالمية الأولى، وأبي في الثانية، وكان لي عم أقام عرضاً بهلوانياً بطائرته في الأربعينات، وآخر في الثلاثينات.. أخي الأكبر مايكل طيار في البحرية.. لذا من الطبيعي أنني أردت أن أكون طياراً كذلك.. أتظنين أن هذا يبدو سخيفاً؟

ـ لا.. بالطبع لا.

تذوقت عصير الكرز دون أن تحس بطعمه، تنتظر أن يكمل.. وأكمل حالماً:

ـ كنت آخذ مايكل كمثلي الأعلى.. لذا حين كنت صبياً صغيراً، كل ما كنت أفكر به هو أن أصبح طياراً في البحرية. كان من المخطط لي كيف سأتبع التقاليد.. بعد بضع سنوات من الطيران سأتحول إلى طيار قيد التجربة، ثم..

تعابيره كانت فارغة دون مرح، كصرخة يائسة، وأرادت تالي أن تحتضنه.

ـ.. ثم أصبح أول رائد فضاء من العائلة.. يبدو هذا غبياً تماماً.. أليس كذلك؟

ـ لا..

ـ لديّ كل شيء تالي.. الطيران في دمي.. وهذا كل شيء أمله لي لأجلي، ولدي الذكاء والجرأة.. ثم.. وبعد بضعة أسابيع من حصولي على درجتي الجامعية في علوم الفضاء، التقطت فيروس «رشح».. رشح.. أتصدقين هذا؟ وهذا كان كل شيء. لقد تقدمت بطلب لكلية تدريب الضباط، لكن كل شيء كان قد انتهى.. أذني

الوسطى أصيبت بالتهاب، وتأثرت طبلة الأذن.. وقضي الأمر.. لا يستطيع المرء قيادة النفاثات إلاّ إذا كانت أعضاءه سليمة..

مالت تالي إلى الوراء متنهدة.. إذن هذا كل ما هو ويلهام غلايمور! واضح أن ثقب الطبلة مع سخافته بالنسبة للإصابات، أملى عليه كل شيء جاء بعده.. وابتدعت كل شجاعته العفوية وحاجته للتحدي.. إنها معركته ضد قدره، معركة لن يستطيع الفوز فيها.. فلا أحد يكسب ضد القدر.

مدّت يدها تلمس ظاهر يده:

ـ لا شك أن هذا كان فظيعاً بالنسبة لك ويلهام.. لكن لا بد أن هناك الآلاف من الأشياء المفيدة المليئة بالتحدي، تستطيع..

رفع أصبعيه.. يضغط شفتيها بلطف يسكتها..

ـ آه هه.. دعك من الملاحظات التافهة.. لقد سمعتها كلها.. صدقيني.

ـ لكن..

هزّ رأسه:

ـ لا.. حسن جداً، لقد أعطيتك سري الدفين.. الآن دعيني أسمع سرّك.

ـ سرّي؟ لكن لا أسرار عندي.

ـ هيّا الآن تالي!

حين كانت صغيرة، كان والدها يدعي أنه بتثبيته نظره على وجهها بشدة يعرف دائماً ما إذا كانت تخبيء عنه شيئاً. ولقد انتهى بها الأمر لأن تصدقه.. وهذه كانت نوعية نظرة عيني ويلهام الخضراوين الآن.. وجعلتها تحس بنفس الطريقة.

قبل أن تعرف أنها تفعل، كانت تخبره قصة برونر.. كيف تربيا معاً.. وكيف كان سيتزوجان في الصيف الذي يلي تخرجها من

المدرسة الثانوية.

كان تدفق الكلام ينقطع من وقت لآخر، بظهور جان يحضر لهما الطعام.. كانت تعي بشكل غامض أن طعم الحساء كان كالمخمل، وصلصة الكركند خليط ثقيل من الكريما، الكرز والقطر.. لكن كان بالإمكان أن تكون تتناول طعاماً جاهزاً مسخناً، دون أن تتذوق طعمه.. لا شيء يهمها سوى معرفتها أن ويلهام وهي يتشاركان أشياء خاصة حميمة حول بعضهما، أشياء لم يشاركاها من قبل مع شخص آخر.. ما عدا أنها حين وصلت أخيراً إلى ذكر الحادثة.. سرها الدفين، ارتجف صوتها.

ـ لم يكن راغباً في الخروج من نزهته تلك الليلة بعد الحفلة.. لكنني رغبت، وأجبرته. كان لدينا بقعة مفضلة على طريق «بانيري كانيون رود».

ارتشفت شرابها دون وعي:

ـ لكننا لم نصل.. فقد استدار بالسيارة بسرعة هائلة وسقطنا من فوق الحافة.

تمتم بلطف:

ـ أظنني بدأت أفهم لماذا تكرهين السيارات، والسرعة.

تابعت متجهمة:

ـ استقرت السيارة رأساً على عقب في واد عميق.. وقلت للناس فيما بعد إن أول شيء أذكره هو أنني أخرجت من الحطام.. واضطروا لسحبي من النافذة.. لكنني لم أكن أقول الحقيقة.. لقد كنت واعية طوال الوقت، مستلقية هناك رأساً على عقب.. كنت أرى برونر.. وكان.. كان ميتاً. كان هو كل...

أغمضت عينيها وكأنها تستطيع إبعاد الذكرى الرهيبة:

ـ بقينا هناك خمس ساعات ويلهام!

جاء دوره ليمد لها يده..

- يا إلهي.. يا للطفلة المسكينة!

كررت ببطء:

- خمس ساعات.. وكنت واعية، أنظر إليه وأعرف أنها غلطتي، لولاي لكان لا يزال...

قاطعها فجأة:

- ما هذا الهراء؟ لقد ارتكبت غلطة بعدم الكلام عن الموضوع منذ زمن بعيد.. إنها غلطته بقدر ما هي غلطتك.. بل غلطتك أقل لأنك لم تكوني أنت سائقة السيارة.

- لكن كان يجب عليّ أن لا أدفعه للذهاب.. لكن، بدا لي أن الأمر مرح.. ومثير.. وخطير.. الانطلاق بسرعة في الوادي عند منتصف الليل.. مجرد مرح!

- أفهم من هذا.. إذن أنت كنت المجنونة وكان برونر الهادىء الجبان.. وأنت دفعته إلى أن قتلته.. أهذا ما جرى؟

- ليس بالضبط.. أعتقد أنه كان مجنوناً مثلي.. لكنه ما كان ليذهب تلك الليلة لو لم أسميه بالبطانية المُبللة، وأنت تعرف المعنى، وكانت كلمتي سبب كل ما جرى.

- أوه..! بدأت أفهم الكثير من الأمور.

ضغط على يدها:

- لكنك لا تنظرين إلى الأمر من زاوية صحيحة.. لا تفهميني خطأً، أنا لا أختلق الأعذار لك.. أنا فقط أقول إنه ملام كما أنت ملامة تماماً.. تستمرين في القول أنك دفعته.. ماذا يفترض بهذا أن يعني؟ هل أجبرته بالقوة؟ هل هددت أن تقتليه إذا لم يفعل؟

- لا..

- هل قلت له إنك لن تقابليه مرة أخرى إذا لم يفعل؟

- لا.. بالطبع لا..

استطاعت أن تفهم ما يود ويلهام أن يصل إليه، لكنها كانت تقاومه، وكأنما لا تريد أن تترك الحزن والذنب اللذين احتضنتهما وشأنهما، وأكملت:

- أنا فقط.. قلت له فقط إنني أريد الذهاب وهذا كل شيء.

- وذهب بملء إرادته.

- لكن..

- ثانياً.. ما نفعله لنفسنا نفعله بنفسنا.. ولا يمكن لأحد أن يكون مسؤولاً عن تصرفاتنا.. أنت لم «تجبريه» على الصعود إلى السيارة، أكثر مما أجبرك موته على الانطواء على نفسك كما فعلت، وأن تكرّسي كل طاقاتك في أعمال الإنقاذ. مهما فعلنا بحياتنا نحن من يستحق اللوم على ما فعلناه.. أو الثناء.. لقد أنقذت أرواحاً كثيرة منذ ذلك الوقت.

نظرت إليه مفكرة.. كم هو محق.. وقالت:

- أنت على حق.. وشكراً لأنك قلت لي هذا.

ارتسمت ببطء ابتسامة هادئة على وجهها، وأكملت:

- وأظن أن الأمر ينطبق على طبلة الأذن أيضاً.

ردد بحيرة:

- طبلة الأذن؟

- طبلة الأذن المثقوبة لم تجعلنا نفعل شيئاً.. نحن مسؤولون عن تصرفاتنا ويلهام.

- حسناً، لكن..

صمت قليلاً ثم انفجر ضاحكاً:

- سجلت تلك نقطة.. أنت محقة تماماً.. أتعلمين، سنكون رائعين مع بعضنا.. لقد اتخذت قراراً حكيماً في الزواج مني.

أووه.. ! لقد نسيت كل شيء عن هذا! لكن الآن ليس الوقت المناسب أبداً.. إنها مشرقة بالسعادة ولن تفسد هذه اللحظات.. هناك وقت يكفي فيما بعد.. وربما، نظراً للطريقة التي سار فيها الحديث، أن هناك فرصة كي يرى المنطق، وكي يكون هناك نهاية سعيدة لكل هذا.. لكن فيما بعد..

ضحكت تسأله:

- ومن هي تلك الخطيبة التي ذكرتها؟ فتاة التقيتها في الكلية؟

- هذه قصة طويلة.. إذا أردت سماعها دعينا نطلب القهوة إلى جناحي، لنكون مرتاحين.. لأن هذه الكراسي قاسية..

والارتياح كان يعني إشعال الحطب في المدفئة بأخشاب السنديان الطويلة، وسماع بعض الموسيقى الهادئة، والغوص بارتياح فوق وسائد الصوفا.. وما إن غادر الساقي، حتى خلعا أحذيتهما، ورفعا أقدامهما على الطاولة الصغيرة.. ويلهام على حق، هذا مريح أكثر بكثير..

تحركت يد ويلهام على ذراعها..

- والآن.. عن ماذا كنا نتكلم؟

- عن خطيبتك السابقة!

- صحيح.. خطيبتي السابقة.. لقد التقيتها في الجامعة.. والدها كذلك ضابط في سلاح الطيران.. وهي تعبده.. وهذا ما أرادته لي.. خطبنا خلال سنتي الأولى في الكلية الحربية، لكن حين أخفقت في الامتحان الطبي..

- أتعني أنها فسخت الخطبة لمجرد أنك لم تستطع أن تكون ضابطاً؟

هزّ كتفيه ورأت عضلات وجهه تتراقص:

- ليس بالضبط.. لقد كان قراراً مشتركاً.. حاولت أن تظهر

بأفضل أحوالها لكنها لم تستطع إخفاء خيبة أملها، كما لم أستطع أنا تماماً. هكذا أوقفنا العلاقة مدة سنة.. وحاولت أن أرتب أفكاري جيداً بالإبحار في الأطلسي..

- وواجهت عاصفة رمتك بعيداً عن طريقك.. واعتقدوا أنك غرقت.

- أقرأت عن هذا؟

- كان صعباً أن لا أقرأ.. لقد كنت مادة خصبة للصحف.

- حسناً.. أحاول دائماً أن أكون مسلياً.. على أي حال لم يطل بها الوقت لتجد شخصاً يواسيها.. وحين ظهرت مرة أخرى كانت مخطوبة وسعيدة.

- لطيار في سلاح الجو؟

- لصاحب سلسلة مخابز.. وما زالت سعيدة كما أعلم.

ضحك، وانضمّت إليه تالي.

نظرت إلى ساعتها:

- أهذه هي القصة الطويلة؟ لم تأخذ دقيقة. كان الأفضل لو بقينا في المطعم.

رفع لها رأسها:

- آه.. لكن لديّ دافع خفي.. أردت الكلام عنّا.. ولم أرغب أن يكون ذلك على الطاولة.

همست بصوت أجش: نتكلم؟

- عنّا.

لكنه لم يتكلم، بل بدا ضائعاً في عينيها كما هي ضائعة في عينيه.. وهمست بشراسة:

- يا إلهي.. كم أحبك!

مدّت يديها تحيط عنقه، واستجاب لها بشوق متصاعد،

واستطاعت أن تشعر بازدياد خفقات قلبه.. وقفز في أعماقها إحساس لم تشعر بمثله من قبل وسمعت نفسها تناوه، وتأوه بدوره منقطع الأنفاس. ثم وجدا نفسيهما فجأة يتطلعان في عيني بعضهما.. ضحكا معاً وابتعدا..

- هل تعانقين دوماً وعيناك مفتوحتان؟

- لا.. أعني لا أعتقد هذا لأنني لم أفكر به من قبل.

تمتم:

- تالي.. تالي.. أحبك فعلاً.. ولا أظن أن لديك فكرة كم أنت مميّزة.

ضحكت:

- أتعلم.. بدأت أصدق أنك تعني هذا حقاً.

ولدهشتها تراجع إلى الوراء مبتعداً عنها، وقال ضاحكاً:

- أريد الكلام عن شيء مهم.

كان لا يزال هناك بعض القهوة في الإبريق، وصبّ بعضاً منه لكليهما.. لم يكن لديها رغبة في القهوة.. لكنّها شربتها على أي حال.

قال مبتسماً:

- يبدو شعرك مشعثاً.

لمسته بيدها متوترة..

- عجباً.. ما السبب؟

وعماذا يريد أن يتكلم؟

مال نحو النار، مرفقاه على ركبتيه، فنجان القهوة بين يديه.. اللهب كان قد خبا الآن، ومن خلال لهيب الجمر الكثيف بدا وجهه مصقولاً كالنحاس.

- حسن جداً.. قبل كل شيء.. أعرف تماماً ما تشعرين به نحو

المخاطر التي أقوم بها.. وأعترف أنني توقعت منك أن توجهي لي نوعاً من الإنذار حين طلبت منك الزواج.. تعرفين كيف: تتخلى عن حياة المخاطرة أو ستعيش من دوني، وأشياء كهذه!

تدخلت القهوة في الوقت الخاطىء.. وقالت تالي بصوت ضعيف:

- أنا لن أفكر بهذا.

- عظيم.. نساء غيرك حاولن هذا.. وأعتقد أنني كان يجب أن أعرف أنك لن تفعلي.

- بالطبع لا.. ما هذه الفكرة السخيفة.. ويلهام، عمّا كنت تريد أن تتكلم؟

ابتسم مستديراً إلى النار مجدداً وقال بصوت ناعم:

- أتعرفين تالي.. لقد وصلت إلى مرحلة اعتبرت فيها حتى المخاطرة بحياتي أمراً باهتاً.. حين أحسست بالمتاعب في طائرة مارك.. اعتقدت أن الأمر قد قضي.. وانتهت حياة ويلهام غلايمور.. ولا أستطيع أن أقول أنني اهتممت كثيراً.

مرة أخرى استدار لينظر إليها تقريباً بخجل:

- لكنني لم أمت.. بل فتحت عيني لأراك أمامي.. فجأة أردت أن أعيش.. احتجت أن أعيش.. يبدو هذا سخيفاً كما أعتقد.

لكنه لم يبدُ لها سخيفاً! بل كان أجمل شيء سمعته في حياتها.. جعلها ممتلئة عاطفة ومشاعر، غير قادرة على الكلام، وضعت يدها على يده، وتسللت الدموع إلى خديها، ولم تمسحها.

أكمل بنفس الصوت المفكر البطيء:

- ومنذ ذلك الوقت بدا لي العالم مرة أخرى كمكان جميل وليس فقط لأنني وقعت في حبك، مع أن هذا ساعدني، بل لأنك علمتني شيئاً مهماً..

همست تنفجر فرحاً. تريد فقط أن تتلفظ باسمه:

- ويلهام.. ويلهام.

- علمتني أن هناك أنواع أخرى من المغامرات إضافة إلى الجلوس في قمرة طائرة نفاثة، أو اللعب بالروليت الروسية.. هناك مغامرات مفيدة أيضاً.. ذلك الأسبوع في الجبال أثبت أن لي مواهب يمكنها إنقاذ أرواح الناس..

أخذت تمسح عينيها بظاهر يدها وتضحك وتبكي معاً:

- بالطبع لديك تلك المواهب!

- والأكثر من هذا أنني أحسست بالتسلية والمرح.

وضع فنجان القهوة من يده ليمسك يدها بين يديه:

- تالي.. أريدك فقط أن تعرفي أنك لن تتزوجي رجلاً متهوراً لا هدف له.. أريد أن أبدأ بفعل أشياء بناءة في حياتي.. وأنا أعني ما أقول..

أفرجت تالي عن نفسها المكبوت بسرعة. كانت باستمرار تفكر أن من المستحيل أن تكون أكثر سعادة.. وصاحت ترمي ذراعيها حول عنقه:

- أوه ويلهام.. كم أنا أحبك!

لكنه مرة أخرى تراجع عنها وأبعد ذراعيها عن عنقه بثبات..

- لا.. انتظري.. دعيني أنهي كلامي. أنا لم أقل بعد ما أنا بحاجة لأن أقوله.

مرة أخرى وخزة خوف، لكنه أخف بكثير هذه المرة، مع أنها كانت كافية لجعل نبضات قلبها غير متوازنة.

- حسن جداً.. الأمر هو.. أوه.. يا للسماء.. هذا ليس أسهل مما ظننت.

- ماذا.. ويلهام؟ أخبرني

أخذ قهوته مرة أخرى.. لا شك أنها أصبحت باردة.. لكنه ابتلع قليلاً منها:

- في الصيف المنصرم وقبل أن يكون لدي فكرة عن وجود تاتالي بيلارد، التزمت بموعد تسلق في شهر أيار.. فريق من الرجال التزمت معهم يدأوا التدريب فعلاً.. وأنا لن أتراجع الآن.. أردتك أن تعرفي بالأمر.. وأن تعرفي..

سألت بصوت متخشب: أين؟

لم يتظاهر أنه لم يفهم سؤالها:

- هنا.. في بورمايت.

- وماذا ستتسلقون؟ هاف دوم؟

- لا.. بل «بيغ وال».

لمجرد سماعها للاسم غاصت معدتها:

- ماذا؟

- آسف.. الاسم الاصطلاحي لدى المتسلقين.. «إل كابيتان»

- إل كابيتان! ويلهام! حتى أنا أعرف ما هو «إل كابيتان»! إنه أخطر مكان للتسلق في العالم! ليس فيه حوافي، ولا ممسك يد.. إنه ثلاثة آلاف قدم صعوداً وبخط مستقيم!

- لا.. ليس مستقيماً تماماً، قرب القمة يميل إلى الخارج.. وهكذا!..

- ويلهام.. الأمر ليس مضحكاً!

- تالي..

مدّ لها يده لكنها سحبتها بحدة، وأبعدت شعرها عن عينيها، تحس بألم لا تستطيع الكلام معه. أخيراً قالت دون تفكير:

- لن تستطيع! لن أسمح لك!

انقلب وجهه فجأة:

- لن.. ماذا؟

بدأت تحس برقة الرعب الخفيفة:

- أنا.. آسفة.. لم أكن أقصد هذا.. الأمر فقط.. غلطة واحدة، قطعة واحدة غير سليمة من المعدّات.. وتموت..

قطب جبينه.. وقست عيناه..

- أنا لست مبتدئاً.. وتعرفين هذا.. جبال إفيرست لم تكن أسهل..

- إن «لإفرست» على الأقل حافات تنام عليها.. فماذا ستفعل فوق «إل كابيتان»؟ تفحم بضع مسامير في الصخر وتعلق أرجوحة عليها؟ ولا تقل لي إنك قادر على تسلقه في يوم واحد!

- لا.. سيستغرق منا عشرة أيام. لكن..

قفزت واقفة: عشرة؟

نظرت إليه دون أن تصدّق.. شيء يشبه ضحكة مخنوقة أفلت من حنجرتها.. الخمس ساعات التي علقت فيها مع بروتر كانت لا نهاية لها. أبدية رهيبة.. لا.. لا يمكن أن تفكر بهذا.

- عشرة أيام! أنت..

وقف يمسكها بذراعيها كي لا تبتعد عنه:

- أيمكن أن تصمتي لحظة؟ اصغي إليّ الآن.. مقارنة مع إيفرست.

التوت تحاول الابتعاد:

- لا أريد سماع شيء عن إيفرست.. لم أكن أعرفك يومها.. حتى ولو كنت أعرفك وفشلت، ما كنت سأضطر إلى مراقبتك وأنت تموت!

أدار عينيه إلى السماء وتنهد بسخط:

- عن ماذا تتكلمين؟ من سيموت؟ لا أريدك في أي مكان قرب

«يوزيمايت» خلال التسلق.. فهذا قد يشتت تركيزي وهو شيء مريع! الآن تعالي إلى هنا ودعينا..

بغضب أفلتت ذراعها منه..

- لن أحتاج أن أكون هنا.. سيعرف العالم أنك ستتسلق ومستغطي محطة تلفزيونية هذا الحدث.. وإذا وقعت ستكون صورتك في كل وسائل الإعلام.. ويلهام.. ليس من العدل أن تجعلني أعاني من كل هذا.. تقول إنك تحبني.. وتقول إنك ستتغيّر.. حسناً.. لماذا لا تتغير الآن؟ ليس الوقت متأخراً للانسحاب!

هذه المرة صمت مستديراً عنها لينظر باكتئاب إلى النار المتلاشية.. أخبرتها وضعية كتفيه كل ما تريد أن تعرفه..

بعد لحظات طويلة، تكلم دون أن يرفع رأسه:

- أنت تبالغين في كل هذا.. وتعرفين.. وأنت لا تفكرين بمنطق.. فلو..

- بمنطق!

وصمتت، حنجرتها مسدودة بمئة إحساس، رأت كتفيه ترتفعان، ثم تهبطان، بنفس عميق صامت، بينما استمر في النظر إلى الجمر في المدفأة..

- المسألة ليست مسألة وقت متأخر أم لا.. لقد أعطيت كلمتي.. والناس يعتمدون عليّ.. و..

أدار رأسه قليلاً نحوها.. عيناه عينا غريب:

- .. وأنا سأذهب.

لم يكن بإمكانه أن يتكلم بصوت منخفض أكثر من هذا.. أو بغضب أقل، لكن الكلمات وعيناه، العينان اللتان نظرتا إليها بكثير من الحب منذ لحظات.. حولتا قلبها إلى جليد.. لقد انتهى كل شيء.. الفقاقيع انفجرت.. والقلب كل شيء إلى مجرد حلم حلو

آخر، وحان وقت الاستيقاظ.

لم تسجل ذاكرتها سوى أشياء ضبابية مما تبقى من الجدال البشع.. كيف رجعا إلى المواضيع نفسها مرات ومرات.. لكن ويلهام كان يعرف مثلما تعرف هي تماماً.. أن لا وجود لحل. في النهاية، كانا متعبين، مرهقين، هجرتهما كل المشاعر، واتفقا أنهما على طرفي نقيض، وأن المزيد من الكلام في المسألة لن يفيد..

لكن ذاكرتها ظلت قوية، وتذكرت كم كان المقبض النحاسي للباب بارداً حين فتحته.. وكيف بعد أن غادرت دون أن تنظر إلى خلفها، عرفت أنها تركت سعادتها مرمية في شظايا مشتتة لا معنى لها.. خلفها.

* * *

٩ ـ تأخرت كثيراً...

أكان من الممكن لويلهام أن يصدق لو قيل له منذ بضع سنوات أن توقع تسلق «إل كابيتان» سيجعله غير مبال أبداً؟ غير معقول.. غير مبالٍ.. غير مكترث.. ضجر.. باختصار لم يكن ليهتم أبداً..!

نظر ويلهام إلى الحطب المشتعل في المدفأة وأخذ يعبث به بالملقط الحديدي، ثم أنهى قهوته وأعاد الفنجان إلى الطاولة التي قرب المقعد بحدة.. أنا هنا ولسوف أكمل ما يجب أن أفعله.. أنا مدين بهذا لبقية الفريق.. إنهم يعتمدون عليّ.. مدّ يده إلى الإبريق يصب فنجاناً آخر.. نظرياً شرب خامس فنجان قهوة ليست الطريقة المثالية لقضاء الليلة التي تسبق عشرة أيام من التسلق.. ويعرف هذا. لو كان لديه عقل سليم، لكان يفعل الآن ما يفعله بقية أفراد الفريق.. إنهم يغطون في نوم عميق.. لكن من قال يوماً إنّ لديه عقل سليم؟ على أي حال لقد درب جيداً بحيث يمكنهم النجاح في التسلق ولو بقي هو نائماً طوال عشرة أيام على الجدار.

هكذا.. إلى الجحيم بكل شيء..

يبدو أنه يقول هذا لنفسه كثيراً هذه الأيام.. وتمتم بصوت مرتفع: يا للنساء! كم كان معتداً بنفسه طوال تلك السنوات، يظن نفسه يعرف تماماً ما يجعلهن مستمرات في الحياة! وسمح لنفسه

بابتسامة صغيرة.. حسناً.. إنه يعرف شيئاً ما عنهن، لكن ليس كل شيء..

حين فشل في الحصول على مركز في سلاح الطيران ظنّ نفسه قد انحدر إلى الحضيض. لكن ذلك لم يكن شيئاً مقارنة بهذا.. لم يشعر يوماً في حياته بفراغ هكذا.. لم يحس بقوة أن حياته ليست أكثر من مزحة فارغة، لا معنى لها.. دون تالي ماذا يهم في الحياة؟ كانت أول امرأة في حياته احتاجها فعلاً وبكل ما في الكلمة من معنى.. ولقد دمّر فرصته بيده..

أوه.. لقد كان واثقاً جداً من نفسه.. ومتأكداً جداً من قدرته على التعامل مع الإناث الشابات اللواتي لا يمكن التأثير عليهن بسهولة.. حسناً.. لقد صدمه الواقع.. وكم كان مخطئاً، وكان يستحق ما جرى له لتصديقه ما يشاع عنه.. كان مستمراً خلال الأسبوع الأول في الظن أنها بحاجة إلى بعض الوقت تهدأ.. حسناً.. لقد مرت سبعة أسابيع، ولا يزال ينتظر.. وإذا كانت تنتظره ليبتلع كرامته ويأتيها زحفاً.. إذن فهي..

جعله رنين الهاتف يجفل.. لقد ترك تعليمات صارمة أن لا تصله مخابرات هاتفية.. إلاّ من.. حدّق بالجهاز وقلبه يخفق بشدة لأول مرة منذ أيام طويلة.. ربما عليه أن يبتلع كرامته على أي حال مع قليل من التشجيع.. في الرنّة الثالثة وضع فنجان قهوته ورفع السمّاعة، أنفاسه قصيرة ومؤلمة.

الصوت كان لرجل، ناعم غير مألوف..

ـ سيد غلايمور..

ـ من المتكلم؟ كيف حصلت على اتصال بحق الله؟

ـ أنا غارث كيندي.. من تلفزيون أ.ب.ث.. قالوا لي في مركز الهاتف إنك لا تتلقى المكالمات لكن..

ـ لقد قالوا لك ما هو صحيح.

ـ انتظر، لا تقفل الخط سيد غلايمور. اسمع، هناك شبكة إرسال جاهزة في «يوزيمايت» استعداداً للغد.. لبرنامج «هالو أميركا» و..

ـ لا!

ـ أرجو عفوك؟

ـ لا.

ـ سيد غلايمور.. التسلق لن يبدأ حتى بعد الظهر، لذا هناك كثير من الوقت.. وتذكر، نحن نتكلم عن برنامج يذاع في كل أنحاء أميركا..

ـ عظيم.. نفذ البرنامج دوني.

ـ مهلك لحظة الآن يا صديقي، لا أحد يقول لا لبرنامج «هالو أميركا»..

ـ حسن جداً لقد قلت هذا لتوي.. عمت مساءً.

ـ اسمع.. ربما لم تفهم من يتكلم معك.. أنا غارث..

صفق ويلهام السماعة بقفلها.. لكنه وهو يعاود الجلوس كان يحس بالخجل من نفسه.. صحيح أنه لم يكن الرجل الأكثر صبراً في العالم، لكنه كان دائماً مؤدباً ومتحدثاً لبقاً.. ولا سبب يدعوه أن لا يصرف نصف ساعة في مقابلة تلفزيونية.

لكنه لم يكن قادراً على إيجاد دوافع تكفي للاتصال مجدداً بمكتب الاستقبال، والحصول على رقم محطة ال أ.ب.ث.. وشعر براحة أكثر في مقعده وفنجان قهوته في يده.. وإلى الجحيم بكل شيء..

* * *

«ويلهام غلايمور في مواجهة قمة الشؤم» العنوان وحده كان كافياً

لتجميد دماء تالي، لكنها استمرت في القراءة..

«استلم ويلهام غلايمور وثلاثة من رفاقه، الإذن الأخير من محمية يوزيمايت الوطنية، للبدء في هجومهم التاريخي على «إل كابيتان» العظيم، اليوم الخميس بعد الظهر، وقاموا بتسلق صغير إلى أول محطة راحة لهم.. الصخر الغرانيتي كتلة واحدة ترتفع ثلاثة آلاف قدم، ويعتبره الخبراء عموماً التحدي الأول في شمالي أميركا لمتسلقي الجبال.. وسيحاول فريق غلايمور سلوك طريق جديد، أكثر خطورة من أي محاولة من قبل.. ويوافق الكثير أن هذا مستحيل.

«للوصول إلى القمة سيضطر فريق غلايمور للمرور في عدة معالم مرعبة من «إل كابيتان».. عبر السنين، سمّى أهل الجبل هذه المعالم أسماء مرعبة: صدع الموت المشؤوم، صدع اليأس، صانع الأرامل، وتاريخها المشؤوم يوضح أسباب هذه التسميات.

الألم المتوتر في مؤخرة عنقها أتعب عينيها، فأغمضتهما، غير قادرة على قراءة المزيد، ورمت صحيفة «فينوكس صن» على الطاولة في غرفة استراحة الموظفين. الخميس.. أي اليوم.. ووقفت فجأة، لا تكاد تعي ما تفعل. أفرغت قهوتها التي لم تذقها، وغسلت الكوب، وعلقته في الخزانة.

لم تكد تفتح نافذة حجرة الصندوق حتى سمعت صليل القطع النقدية المعتاد فرفعت نظرها، كان السيد أنستروذر يفتح الباب وأول زبون تورمان لوتغارتس كان يتجه إليها بإنتاج الأمس من المغسل.. غريب، كل مرة كان يدخل فيها تورمان، تفكر تالي بويلهام..

لكن خلال السبعة أسابيع البائسة منذ رحلتها معه إلى «يوزيمايت» لم تسمع عنه ولا مرة واحدة.. وهذه غلطتها في

معظمها.. فهي حين اكتشفت أن ويلهام بدلاً من السفر بعيداً إلى مكان مجهول، بقي في مزرعة «لايركريك»، واستمر في إدارتها والمشاركة في فريق الإنقاذ، قد أوقفت بكل جبن عضويتها في الفريق.. ودفعت نفسها إلى بؤس أعمق.

ابتسامتها جاءت بعد جهد.. إنها تحب تورمان، لكن حديث قيل وقال كان آخر شيء تريده الآن.. ولو أنّه ردّد معزوفته المعروفة «كيف حال صرّافتي المفضّلة» ستضربه بأحد أكياس النقود المعدنية الموجودة عندها.

لكنه لم يقل شيئاً.. فقد كان مشغولاً بتمتمة شيء من بين أنفاسه.. فسألته:

ـ أهناك شيء خاطئ تورمان؟

وضع الأكياس على الطاولة أمامها بسخط شديد:

ـ أنت محقة تماماً.. إنه أخي.. ذلك الغبي العجوز..

أصغت تالي باهتمام قدر استطاعتها إلى قصة تورمان المشوشة حول مشاجرته مع أخيه.. مع عدّها للنقود المعدنية وصفها، لم تفهم تماماً لماذا تجادلا. ما عدا أن للجدال علاقة بالخلاص من قارورة زجاجية قديمة أثرية، يفكر تورمان بإهدائها إلى جمعية التراث الريفي التاريخي، بينما يصرّ دايفد على أن تذهب إلى مكان آخر.. لكن لمعرفتها بالرجلين لم يكن من الصعب التحديد أين تكمن المشكلة، فكلاهما له كبرياؤه وعناده، ولن يعترفا بهذا.

قالت وهي تعطيه الإيصال:

ـ أتساءل ما إذا كان جزء من المشاكل بينكما، سببه أنكما متشابهان.

ارتفع حاجبا تورمان الكثيفان:

ـ أنا؟ أنا أشبه ذلك الشيس العنيد..؟

مهما كان بقية كلامه فإن تالي لم تسمعه أبداً، فقد ارتد كلامها إليها.. وأكثر من هذا فقد فتحت كلماتها باباً موصداً، وألقت ضوءاً لا مجال للهرب منه على كآبتها التي لا يمكن لا توصف.

وقفت جامدة وكأنها تحولت إلى حجر، تدرك ببأس مفاجىء، أنها مخطئة أكثر من ويلهام.. وأنها هي، وليس هو، التي استخدمت اللامبالاة التي دفعتها إلى الزاوية وحيدة محطمة.. كم كانت غبية، متكبرة وأنانية، طفلة.. وكل الصفات التي اتهمته بها. إنه الرجل الوحيد الذي أحبته، والذي ستحب يوماً، ورمت بعرض الزواج منه! والآن...

الآن، فات الأوان.. انتهى.. لقد حصلت على فرصتها. وبعناد وغباء تمسكت بكبريائها، حسناً، لا زالت تحتفظ بكبريائها.. لكن هل بقي لها غير هذا؟ إنه لا يستقبل حتى المخابرات الهاتفية.. لو أنه فقط لن يتسلق حتى الغد.. أو لو أنها عادت إلى رشدها بالأمس بدل اليوم.. أكان لديها فرصة للوصول إليه قبل أن يبدأ؟ لكن، الآن، الأمر مستحيل.

و.. ستضيع أنفاسها سدى لو حاولت أن تقول له بعد تسلقه، إنها تحبه ومستعدة للقبول به كما هو.. سيضحك عليها.. وأطرقت تمنع الدموع من التساقط، ومن يمكن أن يلومه؟

أم أن الوقت لم يفت كثيراً؟ الخبر يقول في وقت متأخر من بعد الظهر.. فأي وقت يعني «متأخر من بعد الظهر؟».. لم تصل الساعة بعد إلى العاشرة صباحاً، ولو وصلت إلى المطار قرب «توكسون» في الحادية عشرة.. فلربما.. مجرد ربما..

ـ.. حقاً آنسة، أنا أنتظر في الصف منذ ربع ساعة.. وإذا كنت لا تستطيعين أن يكون لديك الاحترام..

أدركت مذهولة أن نورمان لم يعد هناك، والكلمات المتوترة

موجهة إليها.. فتمتمت:

ـ أنا آسفة.. يجب أن أذهب.

أمام أنظار الزبائن وبقية الموظفين المشدوهة، خرجت من مركز عملها.. وصدمت السيد انستروذر الذي أصيب بالذهول، لكنها بقيت منطلقة.. ماذا يهم كل شيء؟ شيء واحد الآن هو المهم: أيمكن أن تصل في الوقت المناسب؟ هل هذا ممكن؟

هذا، وشيء آخر.. حين تصل إلى هناك هل سيهتم بها ويلهام؟ سبعة أسابيع فترة طويلة، وويلهام غلايمور ليس بالرجل الصبور.. لكنها أخذت تدعو أن يكون متسامحاً.

الوصول إلى محمية «يوزيمايت الوطنية» أمر مرهق، ساعة قيادة سيارة إلى مطار «توكسون».. ورحلة محظوظة إلى لوس أنجلوس.. ثم إسراع محموم عبر المطار لتلحق بصعوبة رحلة جوية إلى «ميرسيد».. وأخيراً رحلة باص لاهثة إلى «يوزيمايت».

لم تمض مرحلة واحدة من تلك الرحلة الشاقة بسهولة. لم تصل في الوقت المناسب إلى «توكسون» لتوقف سيارتها الستايشن في الموقف، لتلحق بطائرتها، وانتهى بها الأمر إلى تركها أمام مدخل المطار، تعرف جيداً أنها ستسحب وتحجز.. ويعلم الله أين! ويجب أن تدفع مبلغاً باهظاً لاستردادها.

كانت هذه مجرد البداية.. الرحلتان الجويتان تأخرتا، الأولى عشر دقائق والثانية خمسة عشر بينما كانت تالي تغلي وكاد صبرها ينفد وتشعر بإحباط.. لكن رحلة الباص كانت الأسوأ.. فمع وصولها إلى «إل بورتال» عرفت أنها، بالرغم من استعجالها اليائس، لن تصل في الوقت المناسب.. فقد دفعت عاصفة ربيع الباص إلى البطء والتوقف، ثم السير زحفاً، وكانت رحلة معذبة، كادت أن تقفز من الباص لتكمل الطريق جرياً لمجرد أن تفعل شيئاً..

في الوقت الذي وصلت فيه إلى «تولمن لودج» كادت تبكي توتراً. كانت قد لمحت «إل كابيتان» في مرور الباص به في طريقه إلى «اللودج» لكن نظرها كان محجوباً بالأشجار الباسقة طوال الطريق ومن المستحيل أن تعرف شيئاً.. تقدمت من مكتب الاستقبال مرتجفة وقمها يرتعش.

ـ هل خرج ويلهام غلايمور بعد؟

أدهشها أن مدير الاستقبال عرفها:

ـ أجل آنسة بيلارد، أخشى أن تكوني قد تأخرت.

ـ متى..؟

ـ دفع حسابه عند الظهر.

ـ الظهر! الظهر! لكن متى سيبدأ التسلق؟

ـ لقد بدأ منذ ساعتين.. في الثالثة.

نظر إلى وجهها متفرساً، ثم مال إلى الأمام:

ـ أهناك شيء خاطىء آنسة بيلارد؟ أيمكن أن أقدم لك شيئاً؟

كانت تالي غير قادرة على الكلام، هزّت رأسها، واستدارت مبتعدة.. لقد خسرت الرهان.. وبدأت مئات المشاكل تهاجم تفكيرها.. إنها الآن تبعد ثمانمائة ميل عن موطنها، وليس لديها سوى دولار واحد وخمسة وسبعين سنتاً نقداً.. وسيارتها المسكينة مرمية الآن في مكان احتجازها قرب توكسون، وظيفتها ربما أصبحت من الماضي. ليس معها ملابس احتياطاً، ولا فرشاة أسنان، ولا عندها أي فكرة أين ستقضي الليل.. وهي لم تتناول طعاماً منذ الصباح.

استمرت السلسلة، لكنها لم تستطع إجبار نفسها على التفكير بأي منها كثيراً.. كل شيء سيُحل بطريقة ما.. لكن شيئاً واحداً لن تستطيع حله.. وهو الشيء الوحيد المهم..

للمرة الثانية ذلك اليوم صدمت شخصاً لم تره.

تمتمت تدفع بلطف الجسم الطويل لتخليص نفسها:

ـ أنا آسفة.

لكنه لم يفسح لها الطريق كما فعل السيد أنستروذر.. بل وقف متصلباً، يدان قويتان أمسكتا ذراعيها تثبتانها دون حراك.

ـ تالي؟ أهذه أنت حقاً؟

صوت ويلهام كان ملحاً قلقاً، أجش ومألوف.

لعدة ثواني أصيبت بالذهول، لا تصدق ما تقوله لها أحاسيسها.. ثم وعلى الفور أصبحت متعلقة به بكل ذرة قوة تمتلكها.. تحتاج بيأس إلى أن تلفها ذراعاه بدفء وحياة.

لقد سأل: أهذه أنت حقاً؟ وفي كل أوهامها لا شيء حلمت أن يقوله لها، كان أجمل من هذا السؤال.

شدّها إليه بقوة أكثر مما تشده هي إليها. وأحست بالنعيم يكتم أنفاسها.. بعد لحظات طويلة تراجعت إلى الوراء، لكنه أبقى يديه على ذراعيها، كأنه خائف أن تختفي مجدداً.

ـ دعينا نخرج من هنا.

تالي المذهولة لم تستطع سوى أن تهزّ رأسها إيجاباً. وقطعت البهو معه وسط النظرات المتسلية.. وسارا عبر الممر المليء بالسجاد إلى جناحه قبل أن تجد صوتها، ثم لم تعد الكلمات تتوقف.

ـ مدير مكتب الاستقبال.. الفونس.. قال إنك رحلت وإنني تأخرت عليك.. قال إنك.. إنك قد بدأت التسلق، بدأت في الساعة الثالثة.. وإن..

هز رأسه مبتسماً: لا.

اتسعت عيناها:

ـ لكن.. أتعني أنك قررت..

ـ أن لا أنسلق؟

لم يتحرك، لكنه بدا بعيداً جداً عنها.. لمعان القطب البارد الذي طالما رأته في عينيه اشتعل بقسوة، وقال بصوت متخفض:

ـ ألهذا جئت؟ هل هذه محاولة أخيرة لجعلي أغيّر رأيي؟ إذا كان الأمر كذلك.. فأنت تضيّعين وقتك..

صاحت بسرعة:

ـ لا.. ليس هذا سبب عودتي! صدقاً!

قال:

ـ سبب عدم وجودي الآن هناك أن العاصفة.. أخّرت الإنطلاق. وهذا هو السبب الوحيد تالي.. بعد ظهر الغد سننطلق من جديد.

أحست أن أعصابها تنفلت منها أمام نظرته المشتعلة.. لكن هذا الوقت المناسب.

ـ ويلهام.. جئت أقول لك إنني كنت مخطئة في.. في الطلب إليك التراجع عن وعدك.. الحنث بالتزاماتك.. عذري الوحيد في هذا أنني أحبك كثيراً إلى درجة أنني كنت خائفة ممّا سيحدث لي لو خسرتك.

لعقت شفتيها الجافتين:

ـ و... ولكي..

وخانتها شجاعتها.

لان صوت ويلهام:

ـ ولكي.. ماذا؟

أخذت نفساً عميقاً مشتتاً:

ـ ولكي أرى ما إذا كنت لا زلت تحبني.. و.. تريد الزواج مني.

دفئت عينا ويلهام لتصبحا بريقاً رقيقاً ناعماً، وخطا نحوها خطوة لكنه توقف فجأة.. مرة أخرى عادت النظرة الحديدية إلى عينيه..

ـ متى؟ بعد أن أعود؟

هزت رأسها تؤكد نفيها:

ـ لا.. لا..! بل الآن أو صباح الغد! «رينو» ليست بعيدة ويلهام.. نستطيع الزواج والعودة قبل...

كان هذا كل ما استطاعت التفوه به قبل أن تلقّها ذراعاه وتسحقانها إليه.. بدا لها وكأنه يشرق من فوقها من مكان بعيد، ينظر إليها من ارتفاع شاهق، عيناه مضيئتان بلهب برّاق يذيب العظام.. وأكملت:

ـ ويلهام.. أوه.. ويلهام.

عانقها بشوق عميق حتى تلاشت آخر مخاوفها.. ولفت ذراعيها بدورها حول عنقه بقوة قدر استطاعتها.. تتمتع بالمشاعر الرائعة التي سرت في عروقها، وهي تعرف أنهما متساويان في هذا.

حبست أنفاسها بدهشة، وهو ينحني فجأة ليرفعها بين ذراعيه..

ـ ويلهام.. انتظر.. أنت تبدو مريعاً..

ـ شكراً كثيراً.

ـ لا.. تبدو مرهقاً.. إذا كنا سنتزوج وسنتسلق الجبل في الغد، تحتاج إلى راحة، تحتاج إلى نوم..

ـ أنت محقة تماماً.. اسمعي، أريد فقط أن أقول لك أن لا بأس عندي لو انتظرنا إلى ما بعد عودتي لنتزوج.. إذا كنت تفضلين حفل زفاف كبير، مع كل ملحقاته..

ابتسمت له:

ـ لا اتفاق.. سنتزوج أولاً. صباح الغد.. أعني اليوم.. وكزوج جديد، ستكون مضطراً للحذر فوق ذلك الجبل السخيف..

فسيكون لديك مسؤوليات الآن . يا رجلي الطيب . . وسيكون لديك زوجة ترضيها.

تمتم:

ـ همم . . هذه مسؤولية لا أمانع أبداً أن أتعامل معها . .

* * *

ـ مرحباً تالي . . تيا تتكلم . . هل أنتما حرين للعشاء هذه الليلة؟ مارك تعثر بطائري حجل بينما كان يتصيد اليوم . .

سمعت تالي صوت مارك يصيح من الخلف:

ـ تعثرت؟ لقد لزمني كل ما أملك من براعة تقفي الأثر . .

ابتسمت وتيا تتابع بخفة، صوتها الأجش يطغى على صوت مارك.

ـ . . . ولسوف نطبخهما . لديّ وصفة لصلصة رائعة لا شك أنها ستكون لذيذة.

ـ يبدو لي هذا لذيذاً . وأرغب أن آتي إليكم . لكن ويلهام استدعي بالأمس . . هناك انهيار ثلجي في منتجع التزلج في «كولورادو» ويحتاجون إلى دعم خبير . . ولست أدري إذا كان سيعود في الوقت المناسب.

ـ حسن جداً . تعالي أنت على أي حال . . لكن كيف بقيت هنا؟

ـ حسناً . . ويلهام خبير يقترب من الكمال وهذا أمر لست مضطرة أن أقوله لك . . جاءوا يأخذونه في طائرة صغيرة ولم يكن فيها مكان لي.

ـ حقاً . . إن التفكير بالحياة التي تعيشانها يجعل رأسي يدور . . ألم تكن مهمتكما طوفان في تكساس الأسبوع الماضي؟

ـ في لويزيانا.

ـ كائناً ما يكون . . ماذا بعد ذلك؟

ـ الله وحده يعلم . . كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أبقى على مساواة معه . . فكيف أتكهن بالمستقبل؟ عدا عن عشاء حجل وصلصة مع جيراني المفضلين . . قد يتمكن ويلهام من العودة في الوقت المناسب. تركت له السيارة في المطار.

لكن حان وقت العشاء ولم يصل بعد . . وما إن انتصف الليل حتى وصل ذلك الصوت إلى أسماعها عبر نومها المتقطع القلق.

أجل . . هذا صوت البورش تدخل الطريق الداخلية . . استلقت إلى الخلف فوق الوسائد مع تنهيدة ارتياح وإحساس ترقب دافىء، إنه بخير . . لقد عاد.

ما أغرب هذا! . . لم يكن لديها أية مشكلة بالنوم لوحدها دون اضطراب من قبل . . إلى أن جاء ويلهام ليقاطع أحلامها ويشوشها . . وهي الآن في الليالي التي يكون فيها السرير الكبير لها وحدها . . كل صرير أو حركة كانت توقظها وتجعلها متوترة . . مع ذلك حين يكون إلى جانبها لا تسمع شيئاً، ولو سمعت تندس به وتعود إلى النوم في أمان حضنه.

استقرت بعمق أكثر تحت الأغطية تتظاهر بالنوم. لم يكن هناك الكثير من الادعاء بينهما . . لكن جعله يصدق أنها نائمة حين يعود من مهمة له، كان أمر تسمح لنفسها به . . ربما لن تستطيع التوقف عن القلق عليه، لكنها بكل تأكيد تستطيع إخفاء هذا القلق معظم الوقت.

إضافة إلى هذا، تعترف بصراحة وسعادة كم تحب أن تحسّ به يتسلل بهدوء إلى الفراش قربها.

أصغت وهي تحس بالنعاس إلى صوت الكاراج ينفتح ثم ينغلق . . وصوت خطواته الثابتة على السلم، ثم خرير ماء الدوش

وهو يستحم.. حين سمعته يطفىء نور الحمام، وعت أنها تحبس أنفاسها متلهفة كطفلة صبيحة الميلاد.. انتظرت إلى أن أحست بقامته الجميلة تتمدد إلى جانبها، ثم لم تعد تستطيع الانتظار.. فتنهدت تتلفظ باسمه واستدارت بلطف إليه.

همس:

- مرحباً حبيبتي.

تعانقا بلطف، لكن سرعان ما تغير اللطف، فشدها باشتياق، وبقلب يمتلىء بالسعادة.. وتلاشى ما تبقى من العالم.. لم يعد هناك سوى ويلهام.. لا شيء سوى الحب الذي يستولي عليها.

كان من عادته أن يستسلم إلى نوم هادىء، وكانت تحب أن تراقب وجهه مسترخياً برضىً غير حذر، بينما عيناه تغمضان ببطء.. لكنه الليلة فاجأها بإضاءة المصباح الصغير قرب السرير، وفي نوره الناعم رأت الإثارة الطفولية تغلي في عينيه.

قال:

- لقد جاءوا بجيل كرانستون لهذه المهمة ولقد تحدثت معه بشوق.

- جيل كرانستون من فريق «سييرا مادري»؟

- نعم هو بنفسه.. لقد قبل لتوه عملاً مع مؤسسة أندرو..

- أندرو؟ أتعني وكالة الأمم المتحدة للإغاثة في الكوارث؟

- أجل، ومقرّها الرئيسي في جنيف.

- كم أن هذا مثير.

لكن ما علاقتهما بهذا؟ ما الذي يخفيه ويلهام؟

هزّ كتفيه:

- نعم ولا.. لسوء الحظ إنها وظيفة مكتبية.. لكنه كان يرغب بها كي يضع بعضاً من أفكاره في السيطرة على الكوارث قيد

التنفيذ..

صمت.. حاولت ثالي أن تتصور ما هو التالي: هل عرض عليه جيل وظيفة؟ حسن جداً.. من المثير أن تعيش في أوروبا لفترة.. لكن كم ستشتاق بسرعة إلى فضاء الجنوب الغربي الواسع النقي.. مع كل هذا فهي مسرورة جداً لأن عمل الإنقاذ أسر خيال ويلهام وحرّك فيه ذلك الذكاء الرهيب.. ومن الأفضل أن تكون مسرورة فهذا كله من صنعها.. ولو أن هذا ما يريده هو..

قال ويلهام:

- إحدى هذه الأفكار تشكيل فريق عالمي يتحدّى الأخطار ليصل إلى مسرح الكارثة.. وفي لحظة حدوثها إذا أمكن.. سيكون الفريق نوعاً من الحرس المسبق الذي ينفقد للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام.. إنشاء مراكز قيادة بذل الجهود بالتعاون مع الحكومات المحلية، التعامل مع المشاكل غير العادية، مثل عدم وجود مكان لهبوط الطائرات وما شابه.

- لا تقل لي إنّه يعتقد أنك المرشح الأفضل لهذا الفريق..

صورة العيش في المدن الأوروبية الكبرى تلاشت من رأسها أمام صور أخرى لبراكين ثائرة في جنوبي أميركا، وفيضانات في الهند، وهزّات أرضية في تركيا.. لكنها كلها، بوجود ويلهام وسطها يقوم بمخاطرات رهيبة قد تجعل حتى تسلق «إل كابيتان» لعبة أطفال.. مدّت يدها إلى يده تحاول أن لا تظهر القلق المتلهف المنتشر داخلها وكأنه الثلج المتجمد داخل جدران كهف.

ابتسم يردّ عليها:

- لنقل إنه يعتقد أنني مجنون بما يكفي لأن أقبل.. سأكون فقط قيد الاستدعاء بالطبع. ولا سبب يدعوني لأن أستمر في العيش هنا.

بدلاً من أن ترد عليه، انتزعت يدها من يده وجلست، تثبت

شعرها وراء أذنيها، تريح ذقنها على ركبتيها.. الاعتراض على مخاطرات لا معنى لها أمر معقول.. لكن كيف يمكن لها أن تواجه هذا؟ امتلأ قلبها بالقلق عليه لمجرد التفكير بالأمر.

قال بهدوء:

ـ اسمعي حبيبتي.. أعرف أن هناك بعض الأخطار في هذا.. لكنها فرصتي لأفعل شيئاً له معنى حقيقي في حياتي.. لأن أضع ما أعطانيه الله من مواهب في وجهة استخدام حقيقي. إضافة إلى هذا، ليس الأمر خطيراً إلى ذلك الحد.. غاية ما سأفعله هو تقليل المخاطر والخطر.

رفعت رأسها عن ركبتيها، تأخذ نفساً عميقاً.. هناك شيء واحد يقلقها: العمل.

ـ حسن جداً.. لدي شرط واحد..

ـ شرط؟ أعتقد أننا سبق وتناقشنا بكل هذا.

ـ.. وهو أن تأخذني معك.. كمساعدة شخصية لك إذا لم أستطع دخول الفريق.. ولا تنسى أن لي مواهب مهمة كذلك.

كبحت ابتسامة وهي تراقبه يستوعب كلماتها:

ـ لكن.. تالي..

ـ ألم تقل لي إن الأمر ليس خطيراً إلى ذلك الحد؟

ونظر إليها مشدوهاً.. ثم ضحك.

ـ حسن جداً، اتفقنا، في الوقت الحاضر.. أما فيما بعد، فيمكننا إعادة التفاوض للاتفاق.

جذبها مجدداً إلى ذراعيه لكنها تملصت منه..

ـ إعادة المفاوضات؟ ولماذا تعيد التفاوض؟

ضحك وأمسك بها بشدة:

ـ حسناً.. كنت أفكر أن الوقت حان للتفكير الجدي بإنجاب

وبلهام غلايمور الرابع.. إنها تقاليد العائلة، ويجب المحافظة عليها.

ـ لكن، ما شأن هذا بـ..

ـ أحدنا يجب أن يبقى في المنزل ليعتني به؟

ردت ساخطة:

ـ وهذا الواحد هل يجب أن يكون أنا؟ في أي زمن تظن نفسك؟ في القرن التاسع عشر؟ تبدو وكأنك رجل كهف..

ـ هس..

وأصمتها بمناق، ثم شدها مجدداً إليه.. ما لبثت تالي أن قررت أن للغد همومه وشجونه.. فلنعش لحظاتنا فالحاضر لذيذ بما يكفي.

* * *